

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01070 6533

كتاب
الشيخ



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

الكتاب في بيان
الافعال التي هي في اللغة

الكتاب في بيان
الافعال التي هي في اللغة
الكتاب في بيان

الكتاب في بيان
الافعال التي هي في اللغة

الكتاب في بيان
الافعال التي هي في اللغة



LIBRARY OF
THE
UNIVERSITY OF TORONTO
IN
CARD

1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21
22
23
24
25
26
27
28
29
30
31
32
33
34
35
36
37
38
39
40
41
42
43
44
45
46
47
48
49
50
51
52
53
54
55
56
57
58
59
60
61
62
63
64
65
66
67
68
69
70
71
72
73
74
75
76
77
78
79
80
81
82
83
84
85
86
87
88
89
90
91
92
93
94
95
96
97
98
99
100

PJ

7745

J3

T5

1925

C.3

al-Jāhiz, 'Amr ibn Bahr,
Thalāth rasā'il -

ثَلَاثُ رَسَائِلَ
لِأَبِي عَمْرٍو وَنَبِيحَةَ الْحِجْظِ

المتوفى سنة ٢٥٥ هـ

الأولى - في الرد على النصارى
الثانية - في ذم أفعال الكتاب
الثالثة - في القبان

سعى في نشره

يوشع فinkel

القاهرة

١٣٤٤

المطبعة السلفية - ومكتبتها
لصاحبها: محمد البندقي وبعدها فندون

297/392

G/23

OCLC
60506006

15290

٨١٢، ٣

ما عطف على

B12012464

14018603

كان أبو محمد عبد الله بن حمود الزبيدي الأندلسي مفرى بكلام الجاحظ وكان يقول :

« رضيتُ في الجنة بكتب الجاحظ عوضاً عن نعيمها »

طبقات النحاة للسيوطي ص ٢٨٢

روى الخطيب بسنده عن أبي علي الحسن بن داود أنه قال :

« فخر أهل البصرة بأربعة كتب : كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب

الحيوان له ، وكتاب سيبويه ، وكتاب العين للخليل »

ذيل طبقات الحنفية لابن قطلوبغا ص ١٢٦

الذي نشره (فلوجل) في ليبسيك

مَقَدِّمَةُ النَّاسِرِ

هذه مجموعة قيمة تشمل ثلاث رسائل لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ لم
تطبع بعد :

الاولى رسالته في الرد على النصارى ، والثانية رسالته في أخلاق الكتاب ،
والثالثة رسالته في القيان .

وقد عثرنا على أصولها الخطية فأردنا أن نقوم بطبعها لما اشتملت عليه من
الفوائد المهمة التاريخية والأدبية

فاما الرسالة الاولى فقد وجدناها في مكتبة الازهر وفي مكتبة صاحب
السعادة أحمد تيمور باشا في ضمن مجموعة من رسائل الجاحظ اختارها عبيد الله
ابن حسان . فالمجموعة التيمورية عليها رقم ١٩ أدب ومكتوب في آخرها :

« انتهاء الفصول التي اختارها عبيد الله بن حسان من كتب أبي عثمان
عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله . وكان الفراغ من نسخ هذه النسخة في يوم الجمعة
المبارك الموافق لثلاث خلت من شهر ذى القعدة من شهور سنة ألف وثلثمائة
وخمس عشرة . وقد تم نسخها بيد العبد الحقير المعترف بالعجز والتقصير عبد
أهل السنة والجماعة ، الخاضع لله بالدعاء والطاعة ، الراجي لطف ربه الغنى ، محمد
ابن عبد الله بن ابراهيم الزمراني . غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين »

ثم قال : « وقد نقلت هذه النسخة المباركة من نسخة تاريخها في أوائل
شهر رجب الاصح سنة ٤٠٣ ثلاث وأربعمائة * كاتبها أبو القاسم عبيد الله بن
علي رحمه الله تعالى »

وأما مجموعة المكتبة الازهرية فعليها رقم ٦٨٣٦ ومكتوب في آخرها :
« انتهاء الفصول التي اختارها عبيد الله بن حسان من كتب أبي عثمان عمرو

ابن بحر الجاحظ رحمه الله . وكان الفراغ من نسخ هذه النسخة يوم الجمعة خامس يوم شهر محرم الحرام افتتاح سنة ١٣١٣ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل السلام وأزكى التحية . بقلم العبد الحقير المعترف بالعجز والتقصير محمد بن عبد الله ابن ابراهيم الزمراني غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين »

والظاهر انها منقولة من النسخة التي نقلت منها المجموعة التيمورية ، لأن الكاتب لهما واحد ، والتحريف الواقع فيهما متشابه . ولا يفوتنا أن ننبه هاهنا الى أن الرسالة الاولى قد طبع منها ما يقرب من نصفها بهامش الكامل للمبرد المطبوع في القاهرة سنة ١٣٢٤ ولكنه مملوء بالاغاليط . ونحن قد بذلنا الجهد في تصحيح ما وجدناه من التحريف في المجموعتين

وأما الرسالتان الثانية والثالثة فقد وجدناهما في مكتبة نور الدين بك مصطفى في ضمن مجموعة رسائل خطية للجاحظ وغيره ورقمها عدد ١٠٠ ورسائل الجاحظ الموجودة في هذه المجموعة مكتوب في آخرها :

« استكتبه محمد بن خالد بن خليل الازهرى الحسينى اللاذقى النائب في مركز ولاية الموصل غرة ذى القعدة سنة ١٣١٧ »

وأنا اسجل هنا شكرى لحضرة أمين المكتبة الازهرية الشيخ طه البشرى ولصاحب السعادة أحمد تيمور باشا ولحضرة نور الدين بك مصطفى على إذهابهم لى بنقل هذه الرسائل من مكاتبهم وأقدم ثنائى الخالص لصاحب المكتبة والمطبعة السلفية الاستاذ العالم الاديب محب الدين الخطيب لحسن اعتنائه وبلائه في طبع هذه الرسائل ولجيل نصحه وارشاده . وأقدم شكرى أيضا لحضرتى الاستاذين الشيخ عبد الجواد سويلم والشيخ محمد صديق لاشتراكهما معى في التصحيح وفي

يوشع فنسكل

بالاعتناء بالنقل

﴿ ترجمة الجاحظ ﴾

من كتاب الانساب (ص ١١٨) للقاضي أبي سعيد عبد الكريم
ابن أبي بكر محمد بن أبي المظفر المنصور بن محمد بن عبد الجبار النخعي السمعاني
المروزي الفقيه الشافعي الحافظ

قال : الجاحظ بفتح الجيم والحاء المكسورة بينهما الألف وفي آخره الظاء
المعجمة . هذا لقب أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري إنما قيل له ذلك لان
عينيه جاحظتان - ان شاء الله - حدث عن يزيد بن هارون والسري بن عبدويه
وأبي يوسف القاضي . وروى عنه يموت بن المزرع ومحمد بن عبد الله بن أبي
الدهاب ومحمد بن يزيد النحوي

الجاحظية بفتح الجيم وبعدها الألف وكسر الحاء المهملة وفي آخره الظاء
المعجمة . هذه النسبة الى فرقة من المعتزلة وهم أصحاب أبي عثمان عمرو بن بحر بن
محبوب الجاحظ البصري ، صاحب التصانيف الحسنة . وكان من أهل البصرة
وأحد شيوخ المعتزلة . وكان حدث بشيء يسير عن حجاج بن محمد بن حماد بن
سامة وأبي يوسف القاضي وغيرهما . روى عنه أبو بكر عبد الله بن أبي داود
السجستاني وابن اخته يموت بن المزرع . وهو كنانى ... وهو مولى أبي القلمس
عمرو بن قلع الكنانى ثم الفقيمي . وكان محبوب - جد الجاحظ - أسود وكان
جمالا لعمرو بن قلع

وكان فصيحاً تدل كتبه على فصاحته وملاحة عبارته . حكى أن رجلا
آذاه فقال : لا نك والله أحوج الى هوان من كريم الى كرام ، ومن علم الى عمل ،
ومن قدرة الى عفو ، ومن نعمة الى شكر

ووصف الجاحظ اللسان فقال « هو أداة يظهر بها البيان ، وشاهد يعبر عن الضمير ، وحاكم يفصل الخطاب ، وناطق يرد به الجواب ، وشافع تدرك به الحاجة ، وواصف تعرف به الأشياء ، وواعظ ينهي عن القبيح ومُعزٍّ يردُّ الأحران ، ومعتذر يرفع الضغينة ، وملك يوقئ الإسماع ، وزارع يحرث المودة ، وحاصد يستأصل العداوة ، وشاكر يستوجب المزيد ، ومادح يستحق الالفة ، ومؤنس يذهب الوحشة »

وقال المبرد : دخلت على الجاحظ في آخر أيامه وهو عليل فقالت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف من نصفه مثلوج ولو نشر بالمنشير ما أحسنَّ به ، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه . والآفة في جميع هذا أني قد جرت التسعين . ثم أنشدنا :

أترجو أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت أيام الشباب
لقد كذبتك نفسك ليس ثوب دريس كالجديد من الثياب

ومات الجاحظ في المحرم سنة ٢٥٥ . والجاحظية ترى أن المعارف ضرورية طباع وليس شيء منها من أفعال العباد . ووافق ثمامة بن أشرس في قوله أن العباد ليس لهم فعل غير الإرادة ، وهذا يوجب أن الصلاة والصوم والحج والعمرة والجهاد من اكتساب العبد ، وأن لا يكون الزنا وشرب الخمر من اكتسابهم ، لأن هذه الأفعال غير الإرادة . وفي هذا إبطال الثواب على الطاعات والعقاب على المعاصي . اهـ

وفي كتاب معجم الأدباء لياقوت الحموي (٦ : ٧١ - ٧٢) في أثناء الكلام على الجاحظ قال : كتب الفتح بن خاقان إلى الجاحظ كتابا يقول في فصل منه : « ان أمير المؤمنين يجذبك ويهش عند ذكرك . ولولا عظمتك في نفسه

— لعلك ومعرفتك — لحال بينك وبين بعدك عن مجلسه ، ولغصبك رأيك
وتدبيرك فيما أنت مشغول به ومتوفر عليه

ولقد كان ألقى اليّ من هذا عنوانه ، فزدتك في نفسه زيادة كف بها عن
تجشيمك . فأعرف لي هذه الحال ، واعتقد هذه المنّة على كتاب (الرد على
على النصارى) ، وافرغ منه وعجل به إليّ ، وكن من جدا به على نفسه ، وتنازل
مشاهرتك . قد استطلقته لما مضى واستسلمت لك لسنة كاملة مستقبلة ، وهذا مما
لم تحتكم به نفسك . وقد قرأت رسالتك في (بصيرة غنام^(١)) ولولا أنى أزيد
في مخيلتك لعرفت ما يعتريني عند قراءتها والسلام »

وفي كتاب تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة (ص ٧١ - ٧٢) :
« قال أبو محمد : ثم نصير الى الجاحظ ، وهو آخر المتكلمين والمعاير على
المتقدمين . وأحسنهم للحجة استنارة ، وأشدّهم تلطفا لتعظيم الصغير حتى يعظم
وتصغير العظيم حتى يصغر ، ويبلغ به الاقتدار الى أن يعمل الشيء ونقيضه ،
ويحتج بفضل السودان على البيضان . وتجدد يحتج مرة للعثمانية على الرافضة ،
ومرة للزيدية على العثمانية وأهل السنة ، ومرة يفضل عليا رضى الله عنه ومرة
يؤخره . ويقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتبعه قال الجاهز وقال اسماعيل
ابن غزوان كذا وكذا من الفواحيش ، ويجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن
أن يذكر في كتاب ذكر فيه فكيف في ورقة أو بعد سطر أو سطرين
ويعمل كتابا يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين فاذا صار الى الرد عليهم

(١) غنام رجل مرتد ذكره الجاحظ في مقدمة كتاب (الحيوان) فقال مخاطبا الشخص
الذي وجه اليه الخطاب في صدر كتاب الحيوان ج ١ ص ٥ « ثم عبت افكاري بصيرة غنام
المرتد وبصيرة كل جاحد وملحد ... الخ »

تجوز في الحجة كأنه إنما أراد تنبيههم على ما لا يعرفون ، وتشكيك الضعفة من المسلمين

وتجده يقصد في كتبه للمضاحيك والعبث يريد بذلك استمالة الاحداث
وشراب النبيل . ويستعزيء من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم كذكره .
كبد الحوت وقرن الشيطان وذكر الحجر الاسود وانه كان أبيض فسوده .
المشركون وقد كان يجب أن يبيضه المسلمون حين أسلموا . ويدكر الصحيفة
التي كان فيها المنزل في الرضاع تحت سرير عائشة فاكتها الشاة وأشياء من
أحاديث أهل الكتاب في تنادم الديك والغراب ودفن الهددهامه في رأسه
وتسبيح الضفدع وطوق الحمامة وأشباه هذا مما سند كره فيما بعد ان شاء الله -
وهو مع هذا من أ كذب الامة وأوضعهم لحديث وأنصرهم لباطل . ومن علم
رحمك الله أن كلامه من عمله قلَّ إلا فيما ينفعه ، ومن أيقن أنه مسئول عما ألف
وعما كتب لم يعمل الشيء وضده ، ولم يستفرغ مجهوده في تثبيت الباطل
عنده . وانشدني الرياشي :

ولا تكتب بخطك غير شيء يسرك في القيامة أن تراه



المختار من كتاب
الردّ على النصارى

مدني عثمانه عمرو بن بحر الجاهلي

المتوفى سنة ٢٥٥ هـ

اختارها عبيد الله بن حسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي منَّ علينا بتوحيده * وجعلنا ممن ينفي شبهة خلقه وسياسة
عباده * وجعلنا لا نفرق بين أحد من رسله * ولا نجحد كتابا اوجب علينا
الاقرار به * ولا نضيف اليه ما ليس منه * انه حميد مجيد * فعالم لما يريد

أما بعد فقد قرأت كتابكم ، وفهمت ما ذكرتم فيه من مسائل النصراني
قبلكم ، وما دخل على قلوب أحدائكم وضغائنكم من اللبس ، والذي خفتموه
على جواباتهم من العجز ، وما سألتهم من إقرارهم بالمسائل ، ومن حسن معونتهم
بالجواب

وذكرتم أنهم قالوا ان الدليل على أن كتابنا باطل وأمرنا فاسد أننا ندعي
عليهم ما لا يعرفونه فيما بينهم ولا يعرفونه من أسلافهم ، لانا نزع من أن الله جل
وعز قال في كتابه على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم * واذا قال الله يا عيسى
ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله * ، وأنهم زعموا
أنهم لم يدينوا قط بأن مريم إله في سرهم ، ولا ادعوا ذلك قط في علانيتهم
وأنهم زعموا أنا ادعينا عليهم ما لا يعرفون ، كما ادعينا على اليهود ما
لا يعرفون حين نطق كتابنا وشهد نبينا أن اليهود قالوا ان عزيز ابن الله ، وان
يد الله مغلوله ، وأن الله فقير وهم أغنياء . وهذا ما لا يتكلم به انسان ، ولا
يعرف في شيء من الاديان . ولو كانوا يقولون في عزيز ما نحلتموه وادعيتهموه

لما جحدوه من دينهم ، ولما أنكروا أن يكون من قولهم ، ولما كانوا بانكار
بنوة عزيز أحقّ منا بانكار بنوة المسيح ، ولما كان علينا منكم بأس بعد عقد
الذمة وأخذ الجزية

وذكرتم أنهم قالوا : مما يدل على غلطكم في الاخبار وأخذكم العلم عن غير
الثقات أن كتابكم ينطق أن فرعون قال لهامان « ابن لي صرحاً » وهامان لم
يكن الا في زمن الفرس وبعد زمن فرعون بدهر طويل ، وأن ذلك معروف
عند أصحاب الكتب مشهور عند أهل العلم ، وانما اتخذ صرحاً ليكون إذا علاه
أشرف على الله . وفرعون لا يخلو من أن يكون جاحداً لله تعالى أو مقراً به ،
فإن كان دينه عند نفسه وأهل مملكته نفى الله وجحدته فما وجه اتخاذ الصرح
وطلب الاشراف ، وليس هناك شيء ولا إله ؟ وإن كان مقراً بالله عارفاً به فلا
يخلو من أن يكون مشبهاً أو نافياً للتشبيه ، فإن كان ممن ينفي الطول والعرض
والعمق والحدود والجهات فما وجه طلبه له في مكان بعينه وهو عنده بكل مكان ؟
وإن كان مشبهاً فقد علم أنه ليس في طاقة بني آدم أن يبنوا بنياناً أو يرفعوا صرحاً
يخرق سبع سماوات بأعماقهن والاجزاء التي بينهن حتى يحاذي العرش ثم يعاوه .
وفرعون وإن كان كافراً فلم يكن مجنوناً ، ولا كان الى نقص العقل من بين
الملوك منسوباً . على أن الحكم قد يُقدّم بمقول الملوك بالفضيلة على عقول الرعية
وذكرتم أنهم قالوا : تزعمون أن الله تعالى ذكر يحيى بن زكريا يخبر أنه
لم يجعل له من قبل سميّاً ، وأنهم يجدون في كتبهم وفيما لا يختلف فيه خاصتهم
وعامتهم انه كان من قبل يحيى بن زكريا غير واحد يقال له يحيى منهم يوحنا
ابن فرح

وزعمتم أنهم قالوا لكم : انكم ذكرتم أن الله قال في كتابه لنبيكم « وما
أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم ، فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون »

وانما عني بقوله « أهل الذكر » أهل التوراة ، وأصحاب الكتب يقولون
ان الله قد بعث من النساء نبيات منهن^(١) مريم بنت عمران وبعث منهن حنة
وسارة ورفقي

وذكرتم أنهم قالوا : زعمتم أن عيسى تسلم في المهد ، ونحن على تقديمنا له
وتقديمنا لامره وافراطنا بزعمكم فيه - على كثرة عددنا وتفاوت بلادنا واختلافنا
فيما بيننا - لا نعرف ذلك ولا ندعيه . وكيف ندعيه ولم نسمعه عن سلف ولا
ادعاه منا مدع . ثم هذه اليهود لا تعرف ذلك وتزعم أنها لم تسمع به الا منكم ،
ولا تعرفه المجوس ولا الصابئون ولا عباد البهجة^(٢) من الهند وغيرهم ولا
الترك والخزر ولا بلغنا ذلك عن أحد من الامم السالفة والقرون الماضية ولا في
الانجيل ولا في ذكر صفات المسيح في الكتب والبيانات به على السنة الرسل^(٣)
ومثل هذا لا يجوز أن يجمله الولي والعدو وغير الولي وغير العدو ، ولا يضرب
به مثل ولا يروح به الناس ثم يجمع النصارى على رده مع حبههم لتقوية أمره ،
ولم يكونوا ليضادوكم^(٤) فيما يرجع عليهم نفعه . وكيف لم يكذبوكم في إحيائه الموتى
ومشييه على الماء وبراء الآلهة والابرص ، بل لم يكونوا ليتفقوا على اظهار خلاف
دينهم وانكار أعظم حجة كانت لصاحبهم . ومثل هذا لا ينكمتم ولا ينفك ممن
يخالف وينتم . والكلام في المهد أعجب من كل عجب وأغرب من كل
غريب وأبدع من كل بديع ، لان إحياء الموتى والمشي على الماء وإقامة المقعد
وابراء الأعمى وبراء الآلهة قد أتت به الانبياء وعرفه الرسل ودار في أسماعهم ،
ولم يتكلم صبي قط ولا مولود في المهد . وكيف ضاعت هذه الآية وسقطت

(١) في الاصل « منهم » (٢) جم « بد » بضم الباء وتشديد الدال ، وهو بيت
غنيه أصنام وتساوير أو هو الصنم نفسه . فارسي معرب (٣) يعني أنبياء بني اسرائيل الذين
جاءوا قبل المسيح (٤) في الاصل ولم يكن ليضادوهم .

حجة هذه العلامة من بين كل علامة ؟ وبعد فكل أعجوبة يأتي بها الرجال (١) والمعروفون بالبيان والمنسوبون الى صواب الرأي تكون الحيلة في الظن اليها أقرب ، وخوف الخدعة عليها أغلب . والصبي المولود عاجز في الفطرة ممتنع من كل حيلة ، وهذا (٢) لا يحتاج فيه الى نظر ولا ليشبهه من شاهده يدخل

فصل منه

وسنقول في جميع ماورد علينا من مسائلكم وفيما لا يقع اليكم من مسائلهم بالشواهد الظاهرة والحجج القوية والادلة الاضطرابية . ثم نسألهم بعد جوابنا إياهم عن وجوه يعرفون بها انتقاض قولهم ، وانتثار مذهبهم ، وتهافت دينهم . ونحن نعوذ بالله من التكلف وانتحال مالانحسن ، ونسأله القصد في القول والعمل وأن يكون ذلك لوجهه ، ولنصرة دينه ، انه قريب مجيب * فأنا مبتدىء في ذكر الاسباب التي لها صارت النصراني أحب الى العوام من المجوس ، وأسلم صدوراً عندهم من اليهود ، وأقرب مودة وأقل غائلة وأصغر كفراً وأهون عذاباً . ولذلك أسباب كثيرة ، ووجوه واضحة . يعرفها من نظر ، ويجهلها من لم ينظر أول ذلك ان اليهود كانوا جيران المسلمين بيثرب وغيرها ، وعداوة الجيران شبيهة بعداوة الاقارب في شدة التمكن وثبات الحق ، وانما يعادى الانسان من يعرف ، ويميل على من يرى ، ويناقض من يشا كل ، ويبدو له عيوب من يخاط . وعلى قدر الحب والقرب يكون البغض والبعد . ولذلك كانت حروب الجيران وبني الاعمام من سائر الناس وسائر العرب أطول ، وعداوتهم أشد . فلما صار المهاجرون لليهود جيراناً ، وقد كانت الانصار متقدمة الجوار ، مشاركة

(١) في الاصل « الرجل » وفي نسخة هامش الكامل للبرد « الرجال »

(٢) لفظ « وهذا » ساقط من الاصل وموجود بنسخة هامش الكامل

فى الدار ، حسدتهم اليهود على نعمة الدين ، والاجتماع بعد الافتراق ، والتواصل بعد التقاطع ، وشبهوا على العوام ، واستمالوا الضعفة ، ومالوا الاعداء والحسدة . ثم جاوزوا الطعن وادخل الشبهة الى المناجزة والمناينة بالعداوة ، فجمعوا كيدهم وبذلوا أنفسهم وأموالهم فى قتالهم ، واخراجهم من ديارهم . وطال ذلك واستفاض فيهم وظهر ، وترادف لذلك الغيظ ، وتضاعف البغض ، وتمكن الحقد . وكانت النصارى — لبعده ديارهم من مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ومهاجره — لا يتكلمون طعناً ، ولا يشيرون كيداً ، ولا يجمعون على حرب . فكان هذا أول أسباب ما غلظت القلوب على اليهود ، وليتها على النصارى . ثم كان من أمر المهاجرين الى الحبشة واعتمادهم على تلك الجهة ما حبتهم الى عوام المسلمين . وكما لانت القلوب لقوم غلظت على أعدائهم ، وبقدر ما نقص من بغض النصارى زاد في بغض اليهود . ومن شان الناس حب من اصطنع اليهم خيراً أو جرى على يديه ، اراد الله بذلك أو لم يُرده ، وبقصد كان أم باتفاق

وأمر آخر — وهو من أمتن أسبابهم وأقوى أمورهم — وهو تأويل آية غلظت فيها العامة حتى نازعت الخاصة وحفظتها النصارى واحتجت واستمالت قلوب الرعايا والسفلة وهو قول الله تعالى ﴿ لتجدنَّ أشدَّ الناس عداوةَ الذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدنَّ أقربهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى — الى قوله — وذلك جزاء المحسنين ﴾ وفى نفس الآية أعظم الدليل على ان الله تعالى لم يعن هؤلاء النصارى ولا أشباههم المملكانية واليعقوبية ، وإنما عني ضربَ بحيرا وضربَ الرهبان الذين كان يخدمهم سلمان . وبين حمل (١) قوله « الذين قالوا انا نصارى » على الغلط منهم في الاسماء وبين ان نجزم عليهم لانهم نصارى فرق

(١) فى الاصل « وبين قوله » والزيادة من نسخة هامش الكامل

كما ذكر اليهود أنه جاء الاسلامُ وملوكُ العرب رجلاً : غسانى ولخى ،
وهما نصرانيان . وقد كانت العرب تدين لهما وتؤدى الاتاوة اليهما ، فكان تعظيم
قلوبهم لهما راجعا الى تعظيم دينهما . وكانت تهامة — وان كانت لقاها ^(١)
لاتدين لدين ولا تؤدى الاتاوة ولا تدين الملوك — فانها ^(٢) كانت لاتمتنع من
تعظيم ما عظم الناس وتصغير ما صغروا . ونصرانية النعمان وملوك غسان مشهورة
في العرب ، معروفة عند أهل النسب ، ولولا ذلك لدلت عليها بالاشعار المعروفة
والاخبار الصحيحة . وقد كانت تتجر الى الشام وتنفذ رجالها الى ملوك الروم ،
ولها رحلة في الشتاء والصيف في تجارة : مرة الى اليمن ومرة قبل الشام . ومصيفها
بالطائف ^(٣) . فكانوا أصحاب نعمة وذلك مشهور مذكور في القراءان وعند أهل
المعرفة . وقد كانت تهاجر الى الحبشة وتأتى باب النجاشي وافدة فيحبوهم بالجزيل
ويعرف لهم الاقدار ، ولم تكن تعرف كسرى ولا يانس بهم . وقيصروا
والنجاشي نصرانيان فكان ذلك أيضا للنصارى دون اليهود . والآخرون من
الناس تبع للأول في تعظيم من عظم وتصغير من صغر

وأخرى وهي أن العرب كانت النصرانية فيها فاشية وعليها غالبية ، الا
مضر : فلم تغلب عليها يهودية ، ولا مجوسية . ولم نفس فيها النصرانية الا
ما كان من قوم منهم نزلوا الحيرة يسمون العباد فانهم كانوا نصارى ، وهم
مغمورون مع نبت يسير في بعض القبائل ، ولم تعرف مضر الا دين العرب ،
ثم الاسلام . وغلبت النصرانية على ملوك العرب وقبائلها : على نخم وغسان
والحارث بن كعب بنجران وقضاة وطى في قبائل كثيرة وأحياء معروفة . ثم

(١) اللقاح — بفتح اللام — الحى الذين لا يدينون للملوك أو لم يصبهم في الجاهلية سباء
(٢) في الاصل « بأنها » (٣) كذا في النسخة المطبوعة بهامش الكامل . وفي الاصل
المخطوط بعد قوله « في تجارة » : « مرة الى الحبشة ، ومرة قبل الشام ، ومرة يثرب ،
ومصيفها بالطائف . ومرة منيعين مستأنفا بجهده » ومعنى هذه الجملة الاخيرة غير ظاهر وبمدها
« فكانوا أصحاب نعمة . . . الخ »

ظهرت في ربعة فغلبت على تغلب وعبد القيس وأفناء بكر^(١) ثم في آل ذي
الجدين خاصة. وجاء الاسلام وليست اليهودية بغالبة على قبيلة الا ما كان من
ناس من اليمانية ونبت يسير من جميع اباد وربعة. ومعظم اليهودية انما كان
بيثرب وخمير وتيماء ووادي القرى في ولد هارون دون العرب، فمطف قلوب
دهماء العرب على النصارى الملك الذي كان فيهم، والقراية التي كانت لهم.
ثم رأيت عوامنا أن فيها ملكا قائما، وأن فيهم عرباً كثيرة، وأن بنات الروم
ولدن لملوك الاسلام، وأن في النصارى متكلمين وأطباء ومنجمين، فصاروا
بذلك عندهم عقلاء، وفلاسفة حكماء، ولم يروا ذلك في اليهود

وانما اختلفت أحوال اليهود والنصارى في ذلك لان اليهود ترى ان النظر
في الفلسفة كفر، والكلام في الدين بدعة، وانه بجلية لكل شبهة، وانه لا علم
الا ما كان في التوراة وكتب الانبياء، وان الايمان بالطب وتصديق المنجمين
من أسباب الزندقة والخروج الى الدهرية والخلاف على الاسلاف وأهل القدوة،
حتى أنهم ليمهرجون المشهور بذلك، ويحرمون كلام سالك سبيل أولئك
ولو علمت العوام أن النصارى والروم^(٢) ليست لهم حكمة ولا بيان ولا بعد
روية، الاحكمة السكف من الخطر والنجر والتصوير وحياسة البريون^(٣) لاخرجتهم
من حدود الادباء، ولحتمهم من ديوان الفلاسفة والحكماء. لان كتاب المنطق
والسكون والفساد وكتاب العلوى وغير ذلك لا رسطاطا ليس وليس برومى
ولا نصرانى، وكتاب المجسطى لبطليموس وليس برومى ولا نصرانى، وكتاب
اقليدس لا قليدس وليس برومى ولا نصرانى، وكتاب الطب جالينوس ولم يكن
رومياً ولا نصرانياً، وكذلك كتب ديمقراط وبقرات وأفلاطون وفلان وفلان،

(١) كذا في الاصل وفي نسخة هامش الكامل « وأحياء بكر »

(٢) يريد بالروم سكان الانضول من أتباع الدولة البزنطية (٣) السندس

وهؤلاء اناس من أمة قد بادوا وبقيت آثار عقولهم وهم اليونانيون ، ودينهم غير دينهم وأديبهم غير أديبهم ، أولئك علماء وهؤلاء صنّاع أخذوا كتبهم لقرب الجوار وتداني الدار ، فمنها ما أضافوه الى أنفسهم ومنها ما حولوه الى ملتهم ، الا ما كان من مشهور كتبهم ومعروف حكمهم فلهم حين لم يقدرُوا على تغيير أسمائها زعموا أن اليونانيين قبيل من قبائل الروم ، ففخروا بأديانهم على اليهود واستطالوا بها على العرب وبذخوا بها على الهند ، حتى زعموا أن حكماءنا اتباع حكمائهم وأن فلاسفتنا احتذوا على مثاهم . فهذا هذا

ودينهم - يرحمك الله - يضاهي الزندقة ، ويناسب في بعض وجوه قول الدهرية ، وهم من أسباب كل حيرة وشبهة . والدليل على ذلك اننا لم نر أهل ملة قط أكثر زندقة من النصارى ، ولا أكثر متحيراً أو مترنحاً منهم . وكذلك شأن كل من نظر في الأمور الغامضة بالعقول الضعيفة . ألا ترى أن أكثر من قتل في الزندقة - ممن كان ينتحل الاسلام ويظهره - هم الذين آباؤهم وأمهاتهم نصارى ؟ على أنك لو عددت اليوم أهل الظنة ومواضع التهمة لم نجد أكثرهم الا كذلك . ومما عظمهم في قلوب العوام وحببهم الى الطغام أن منهم كتاب السلاطين ، وفراشى الملوك ، وأطباء الاشراف ، والعطارين ، والصيارفة ، ولا نجد اليهودى إلا صباغاً أو دباغاً ، أو حجاماً أو قصاباً أو شعباً (١) . فلما رأت العوام اليهود والنصارى كذلك توهمت أن دين اليهود في الدين كصناعتهم في الصناعات ، وأن كفرهم أقدر الكفر إذ كانوا هم أقدر الامم . وانما صارت النصارى أقل مساختة من اليهود - على شدة مساختة النصارى - لان الاسرائيلي لا يزوج الا الاسرائيلي ، وكل مساختهم مردودة فيهم ومقصورة عليهم . وكانت الغرائب

(١) الشعب : مصباح الشعب أي المصدع

لا تشوبهم ، وخولة الاحناس لا تضرب ولا تضرب فيهم ، لم ينجبوا في عقل ولا أسر ولا ملح^(١) . وانك لتعرف ذلك في الخليل والابل والحير والحمام ونحن - رحمك الله تعالى - لم نخالف العوام في كثرة أموال النصارى ، وأن فيهم ملكا قائما ، وأن ماءهم أنظف ، وأن صناعتهم أحسن . وانما خالفنا في فرق مابين الكافرين والفرقتين في شدة المعاندة واللجاجة ، والارصاد لاهل الاسلام بكل مكيدة ، مع لؤم الاصول وخبث الاعراق . فاما الملك والصناعة والهيئة فقد علمنا أنهم اتخذوا البراذين الشهيرة^(٢) والخليل العتاق ، واتخذوا الجوقات ، وضربوا بالصوالجة ، وتحدثوا المدينى ، ولبسوا الملحَم^(٣) والمطبعة ، واتخذوا الشاكرية^(٤) وتسموا بالحسن والحسين والعباس والفضل وعلى واكتنوا بذلك أجمع ، ولم يبق الا أن يتسموا بمحمد ويكتنوا بأبي القاسم . فرغب اليهم المسلمون . وترك كثير منهم عقد الزناير وعقدتها آخرون دون نياهم ، وامتنع كثير من كبرائهم من اعطاء الجزية وأنفوا - مع اقتدارهم - من دفعها ، وسبوا من سبهم وضربوا من ضربهم . وما لهم لا يفعلون ذلك وأكثرت منه وقضاتنا او عامتهم يرون أن دم الجائليق والمطران والاسقف وفاء بدم جعفر وعلى والعباس وحمة ، ويرون أن النصرائى إذا قذف أم النبي صلى الله عليه وسلم بالغاوية أنه ليس عليه الا التعزير والتأديب ، ثم يحتجون أنهم انما قالوا ذلك لان أم النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن مسلمة . فسبحان الله العظيم ما أعجب هذا القول ، وأبين انتشاره^(٥) . ومن حكم النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يساونا في المجلس ، ومن قوله « وان سبوكم فاضربوهم وان ضربوكم قاتلوهم » وهم اذا قذفوا أم النبي صلى الله عليه وسلم بالفاحشة لم يكن لهم عند أمته الا التعزير والتأديب . وزعموا أن افتراءهم على النبي صلى الله

(١) شد الله اسره أى قوى احكام خلقه . والملح الرضاع والابن (٢) ضرب من

البراذين (٣) جنس من الثياب سدها ابريسم ولحمته غير ابريسم

(٤) جمع شاكري معرب « جاكر » بالفارسية بمعنى الاجير والمستخدم (٥) ضاعفه

عليه وسلم ليس بنكث للعهد ، ولا بنقض للعقد . وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يعطونا الضريبة عن يد منّا عليه في قبولنا منه وعقدنا له ذمته دون اراقة دمه . وقد حكم الله تعالى عليه بالذلة والمسكنة . وما ينبغي للجاهل أن يعلم أن الأئمة الراشدين والسلف المتقدمين لم يشترطوا عند أخذ الجزية وعقد الذمة عدم الافتراء على النبي صلى الله عليه وسلم وأمهاته إلا لأن ذلك عندهم أعظم في العيون وأجل في الصدور من أن يحتاجوا إلى تخليده في الكتب ، وإلى اظهار ذكره بالشرط ، وتثبيته بالبينات . بل لو فعلوا ذلك لكان فيه الوهن عليهم ، والمطمعة فيهم ، ولظنوا أنهم في القدر الذي يحتاج فيه إلى هذا وشبهه . وإنما يتوانق الناس في شروطهم ويفسرون في عهودهم ما يمكن فيه الشبهة أو يقع فيه الغلط أو يغبي عنه الحاكم وينسأه الشاهد ويتعلق به الخصم ، فاما الواضح الجليل والظاهر الذي لا يخيل فما وجه اشتراطه والتشاغل بذكره ؟ وأما ما احتاجوا إلى ذكره في الشروط وكان مما يجوز أن يظهر في العهد فقد فعلوه ، وهو كالذلة والصغار واعطاء الجزية ومقاسمة الكنائس وان لا يعينوا بعض المسلمين على بعض وأشباه ذلك . فأما أن يقولوا لمن هو أذل من الدليل وأقل من القليل - وهو الطالب الراغب في أخذ فديته والانعام عليه بقبض جزيته وحقن دمه - : نعاهدك على أن لا تقترى على أم رسول رب العالمين وخاتم النبيين وسيد الاولين والآخرين فهذا مالا يجوز في تدبير أوساط الناس فكيف بالجللة والعلية وائمة الخليفة ومصاييح الدجى ومنار الهدى ، مع انفة العرب وبأو السلطان وغلبة الدولة وعز الاسلام وظهور الحجة والوعد بالنصرة

على أن هذه الامة لم تثبت باليهود ولا المجوس ولا الصابئين كما ابتليت بالنصارى ، وذلك أنهم يتبعون المتناقض من أحاديثنا والضعيف بالاسناد من روايتنا والمتشابه من آي كتابنا ، ثم يخلون بضعفائنا ويسألون عنها عوامنا ، مع

ماقد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاحين وحتى مع ذلك ربما تبرءوا الى علمائنا وأهل الاقدار منا ، ويشغبون على القوى ويلبسون على الضعيف . ومن البلاء ان كل انسان من المسلمين يرى أنه متكلم ، وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد !

وبعد فلولاً متكلمو النصارى وأطباؤهم ومنجموهم ماصار الى أغنيائنا وظيفائنا ومجائنا وأخذنا شئ من كتب المشائية^(١) والديصانية^(٢) والمرقونية^(٣) والفلانية^(٤) ولما عرفوا غير كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وكانت تلك الكتب مستورة عند أهلها ، ومخللة في أيدي ورثتها . فكل سخنة عين رأيناها في أحدائنا وأغبيائنا فمن قبلهم كان اولها . وأنت اذا سمعت كلامهم في العفو والصفح وذكرهم للسياحة^(٥) وزيارتهم على كل من أكل اللحم ورغبتهم في اكل الحبوب وترك الحيوان وتزهدهم في النكاح وتركهم لطلب الولد ومديحهم للجائليق والمطران والاسقف والرهبان بترك النكاح وطلب النسل وتعظيمهم الرؤساء علمت أن بين دينهم وبين الزندقة نسبا وانهم يحنون الى ذلك المذهب

والعجب أن كل جائليق لا ينكح ولا يطلب الولد ، وكذلك كل مطران وكل أسقف ، وكذلك كل أصحاب الصوامع من اليعقوبية والمقيمين في الديورات

(١) كذا الاصل ، ولعله (البنانية) وهم - كما في المال والنحل للشهرستاني ١ : ٢٠٤ - « من الغلاة القائمين بالهية أمير المؤمنين على عليه السلام ، قالوا : حل في على جزء الهي واتحد بجسده » (٢) يدينون بالنور على أنه مصدر الخير قصدا واختيارا وبالظلام على أنه مصدر الشر طبعاً واضطراباً (٣) يدينون بالنور والظلام على أنهما أصلان متضادان ، ومهما ثالث هو دون النور وفوق الظلمة ، ووظيفته التعديل وهو سبب المزاج

(٤) كذا الاصل ، ولعله (المليائية) قال الشهرستاني (٢ : ١٢) انهم « أصحاب الديلاء ابن ذراع الدوسي . . . وكان يفضل علياً على النبي صلى الله عليه وسلم وزعم أنه الذي بعث محمداً وسماه الها . . . ومنهم من قال بالهيتما جميعاً »

(٥) يريد خروجهم من المدن طلباً للزهد

والبيوت من النسطورية ، وكل راهب في الارض وراهبة - مع كثرة الرهبان والرواهب ومع تشبه أكثر القسيسين بهم في ذلك ومع ما فيهم من كثرة الغزاة وما يكون فيهم مما يكون في الناس من المرأة العاقر والرجل العقيم على أن من تزوج منهم امرأة لم يقدر على الاستبدال بها ولا على أن يتزوج أخرى معها ولا على التسري عليها - وهم مع هذا قد طبقوا الارض وملأوا الآفاق وغلبوا الامم بالعدد وبكثرة الولد . وذلك مما زاد في مصائبنا وعظمت به محنتنا . ومما زاد فيهم وأنى عددهم أنهم يأخذون من سائر الامم ولا يعطونهم ، لان كل دين جاء بعد دين أخذ منه الكثير واعطاه القليل

فصل منه

ومما يدل على قلة رحمتهم وفساد قلوبهم أنهم أصحاب الخصاء من بين جميع الامم ، والخصاء أشد المثلة وأعظم ماركبه انسان . ثم يفعلون ذلك باطفال لا ذنب لهم ولا دفع عندهم . ولا نعرف قوماً يعرفون بخصاء الناس حيث ما كانوا الا ببلاد الروم والحبشة ، وهم في غيرهما قليل وأقل قليل . على أنهم لم يتعلموا الا منهم ، ولا كان السبب في ذلك غيرهم . ثم خصّوا أبناءهم وأسلموهم في بيعهم . وليس الخصاء الا في دين الصابئين ، فان العابد ربما خصى نفسه ولا يستحل خصاء ابنه ^(١) ، فلو تمت ارادتهم في خصاء أولادهم في ترك النكاح وطلب النسل كما حكيت لك قبل هذا لا تقطع النسل وذهب الدين وقُتن الخلق

والنصراني وان كان أنظف ثوباً وأحسن صناعة وأقل مساخة فان باطنه الأم وأقندر وأسمج ، لانه أقلف ولا يغتسل من الجنابة ويأكل لحم الخنزير وامراته جنب لا تطهر من الحيض ولا من النفاس ويفشاها في الطمث وهي مع ذلك غير محتونة . وهم مع شرار طبائعهم وغلبة شهواتهم ليس في دينهم مَزَاجِر

(١) كذا في نسخة هامش الكامل ، وفي الاصل « نفسه »

كنار الأبد في الآخرة وكل حدود والقود والقصاص في الدنيا ، فكيف بجانب ما يفسده ويؤثر ما يصلحه من كانت حاله كذلك . وهل يصلح الدنيا من هو كما قلنا ، وهل يهيج على الفساد الا من وصفنا ؟

ولو جهدت بكل جهدك وجمعت كل عقلك أن تفهم قولهم في المسيح لما قدرت عليه حتى تعرف به حد النصرانية وخاصة قولهم في الالهية . وكيف تقدر على ذلك وأنت لو خلوت وانصرتي لسطوري فسألته عن قولهم في المسيح لقال قولا ، ثم ان خلوت بأخيه لأمه وأبيه وهو لسطوري مثله فسألته عن قولهم في المسيح لاناك بخلاف قول أخيه وضده . وكذلك جميع الملكانية واليعقوبية . ولذلك صرنا لا نعقل حقيقة النصرانية كما نعرف جميع الأديان . على أنهم يزعمون ان الدين لا يخرج في القياس ولا يقوم على المسائل ولا يثبت في الامتحان ، وانما هو بالتسليم لما في الكتب والتقليد الاسلاف . ولعمري ان من كان دينه دينهم ليجب عليه أن يعتذر بمثل عذرهم . وزعموا أن كل من اعتقد خلاف النصرانية من الجوس والصابئين والزنادقة فهو معذور ، ما لم يتعمد الباطل ويعاند الحق . فاذا صاروا الى اليهود قضوا عليهم بالمعانة ، وأخرجوهم من طريق الغلط والشبهة

فصل منه

فاما مسألتهم في كلام عيسى في المهد فهي أن النصارى مع حبهم لتقوية أمره لا يثبتونه ، وقولهم انا تقولناه وروينا عن غير الثقة ، وأن الدليل على أن عيسى لم يتكلم في المهد أن اليهود لا يعرفونه وكذلك الجوس وكذلك الهند والخر والديلم . فنقول - في جواب مسألتهم عند انكارهم كلام المسيح في المهد مولوداً - يقال لهم : انكم حين سؤيتم المسألة وموتتموها ونظمت أفاضها ظننتم أنكم قد نجحتم وبلغتم غايتكم ، ولعمري لأن حسن ظايرها وراع الاسماع مخرجها انها

لقبيحة المفتش ، سيئة المغزى . وامعري لو كانت اليهود تقر لكم باحياء الاربعة
الذين تزعمون ، وإقامة المقعد الذي تدعون ، وإطعام الجمع الكثير من الارغفة
اليسيرة ، وتصيير الماء جمدًا ، والمشى على الماء ، ثم أنكرت الكلام في المهد من
بين جميع آياته وبراهينه ؛ لكان لكم في ذلك مقال ، والى الطعن سبيل . فلما
وهم يجحدون ذلك أجمع : فمرة بضحكون ، ومرة يغتاظون ويقولون انه صاحب
رُقَى ونير نجات ومداوى مجانين ومتطبب وصاحب حيل ومريض خدع^(١)
وقراءة كتب وكان لسنًا سُكَيْتًا ومقتولا مرحوما^(٢) ، ولقد كان قبل ذلك صياد
سمك وصاحب شبك وكذلك أصحابه ، وانه خرج على مواطاة منهم له ، وانه
لم يكن له شدة . وأحسنهم قولاً وألينهم مذهباً من زعم أنه ابن يوسف النجار ،
وأنه قد كان واطاً ذلك المقعد قبل إقامته بسنين حتى اذا شهره بالقعدة وعُرف
موضعه في الزماني مرَّ به في جمع من الناس كأنه لا يريد فشكا اليه الزمان وقلة
الحيلة وشدة الحاجة فقال ناولى يدك فناولته يده فاجتذبه فأقامه فكان تجمع لطول
القيود حتى استمر بعد ذلك ، وانه لم يحى ميتاً قط وانما كان داوى رجلاً يقال
له لاعار إذ اغمى عليه يوماً وليلة وكانت امه ضعيفة العقل قليلة المعرفة فمر بها فاذا
هي تصرخ وتبكي فدخل اليها ليسكتها ويعزيها وجس عرقه فرأى فيه علامة الحياة
فداواه حتى أقامه فكانت لقلة معرفتها لا تشك أنه قد مات ولفرحها بحياته تثني
عليه بذلك وتتحدث به . فكيف تستشهدون قوماً هذا قولهم في صاحبكم حين
قالوا : كيف يجوز أن يتكلم صبي في المهد مولوداً فيجهله الاولياء والاعداء ؟

ولو كانت المجوس تقر لعيسى بعلامة واحدة وبأدنى اعجوبة لكان لكم
أن تنكروا علينا بهم ، وتستعينوا بأنكارهم . فلما وحال عيسى في جميع أمره عند
المجوس كحال زرادشت في جميع أمره عند النصارى فما اعتلأهم بهم وتعلقهم

(١) في الاصل « وترض خدع » (٢) كذا الاصل وامله بالجيم المعجمة

في انكارهم ؟

وأما قواكم : فكيف لم تعرف الهند والخزر والترك ذلك ؟ متى أقرت الهند لموسى باعجوبة واحدة فضلا عن عيسى ؟ ومتى أقرت لنبي بآية أو روت له سيرة حتى تستشهدوا الهند على كلام عيسى في المهد ؟ ومتى كانت الترك والديلم والخزر والتتر والطيلسان مذكورة في شيء من هذا الجنس ، محتجاً بها على هذا الضرب ؟

فإن سألونا عن أنفسهم فقالوا : مالنا لا نعرف ذلك ولم يبلغنا عن أحد بته ؟ أجبتناهم بعد اسقاط نكيرهم وتشنيعهم وتزوير شهودهم ، فجوابنا : أنهم انما قبلوا دينهم عن أربعة أنفس : اثنان منهم من الحواريين بزعمهم يوحنا ومتى ، واثنان من المستجيبة ^(١) وهما مارقش ولوقش . وهؤلاء الاربعة لا يؤمن عليهم الغلط ولا النسيان ولا تعمد الكذب ولا التواطؤ على الامور والاصطلاح على اقتسام الرياسة وتسليم كل واحد منهم لصاحبه حصته التي شرطها له . فإن قالوا : انهم كانوا أفضل من أن يتعمدوا كذبا وأحفظ من أن ينسوا شيئا وأعلى من أن يغلطوا في دين الله تعالى أو يضيعوا عهداً ، قلنا : ان اختلاف رواياتهم في الانجيل ، وتضاد معاني كتبهم ، واختلافهم في نفس المسيح مع اختلاف شرائعهم ؛ دليل على صحة قولنا فيهم ^(٢) وغفلتكم عنهم . وما ينكر من مثل لوقش أن يقول باطلا وليس من الحواريين ، وقد كان يهوديا قبل ذلك بأيام يسيرة . ومن هو عندكم من الحواريين خبر من لوقش عند المسيح في ظاهر الحكم بالطهارة والطباع الشريفة وبراءة الساحة .

(١) اظن معناه انهما دعيا الى النعمانية فيما بعد فاستجابا لها

(٢) من هنا الى آخر الرسالة غير موجود في النسخة المطبوعة - بهامش الكامل

فصل منه

وسألتهم عن قولهم : إذا كان تعالى قد اتخذ عبدا من عباده خليلا فهل يجوز أن يتخذ عبدا من عباده ولدا ، يريد بذلك اظهار رحمته له ومحبته اياه وحسن تربيته وتأديبه له ولطف منزلته منه ، كما سمي عبدا من عباده خليلا وهو يريد تشریفه وتعظيمه والدلالة على خاص حاله عنده . وقد رأيت من المتكلمين من يجيز ذلك ولا ينكره اذا كان ذلك على النبي والتربية والابانة له بلطف المنزلة والاختصاص له بالرحمة والمحبة ، لاعلى جهة الولادة واتخاذ الصاحبة ، ويقول ليس في القياس فرق بين اتخاذ الولد على النبي والتربية وبين اتخاذ الخليل على المولاية والمحبة ، وزعم أن الله تعالى يحكم في الاسماء بما أحب كما أن له أن يحكم في المعاني بما أحب . وكان يجوز دعوى أهل الكتاب على التوراة والانجيل والزبور وكتب الانبياء صلوات الله عليهم في قولهم ان الله قال : اسرائيل بكري ، أي هو أول من تبنييت من خلقي . وأنه قال : اسرائيل بكري وبنوه أولادى . وأنه قال لداود : سيولد لك غلام يسمى لى ابنا وأسمى له أبا . وأن المسيح قال في الانجيل : أنا اذهب الى أبي وأبيكم والهي والهكم . وأن المسيح أمر الحواريين أن يقولوا في صلواتهم : يا أبانا في السماء تقدس اسمك . . . في أمور عجيبة ، ومذاهب شنيعة ، تدل على سوء عبارة اليهود وسوء تأويل أصحاب الكتب ، وجهلهم مجازات الكلام وتصاريح اللغات ونقل لغة الى لغة وما يجوز على الله وما لا يجوز . وسبب هذا التأويل كله الغي والتقليد واعتقاد التشبيه . وكان يقول : انما وضعت الاسماء على أقدار المصلحة وعلى قدر ما يقابل من طبائع الامم ، فربما كان أصلح الامور وآمنها أن يتبناه الله أو يتخذه خليلا أو يخاطبه بلا ترجمان أو يخلقه من غير ذكر أو يخرج من بين عاقر وعقيم ، وربما كانت المصلحة غير ذلك كله ، وكما تعبدنا أن نسميه

جوادا أو نهانا أن نسميه سخيا أو سريا وأمرنا أن نسميه مؤمنا ونهانا أن نسميه مسلما وأمرنا أن نسميه رحبا ونهانا أن نسميه رفيقا ، وقياس هذا كله واحد وإنما يتسم ويسهل على قدر العادة وكثرتها ، ولعل ذلك كله قد كان شائعا في دين هود وصالح وشعيب واسماعيل اذ كان شائعا في كلام العرب في اثبات ذلك وانكاره

وأما نحن - رحمك الله - فأنا لانحيز أن يكون لله ولد: لامن جهة الولادة ولا من جهة التبني . ونرى أن تجوز ذلك جهل عظيم واثم كبير ، لانه لو جاز أن يكون أباً ليعقوب لجاز أن يكون جدا ليوסף ، ولو جاز ان يكون جداً واباً - وكان ذلك لا يوجب نسباً ولا يوهم مشاكاة في بعض الوجوه ولا ينقص من عظم ولا يحط من بهاء - لجاز ايضا ان يكون عما وخالا لانه ان جاز [ان نسميه من أجل المرحمة والمحبة والتأديب أبا جاز ^(١)] أن يسميه آخر من جهة التعظيم والتفضيل والتسويد أخا ولجاز أن يجد له صاحبا وصديقا ، وهذا ما لا يجوز الا من لا يعرف عظمة الله وصغر قدر الانسان . وليس بحكيم من ابتذل نفسه في توقير عبده ووضع من قدره في التوفر على غيره . وليس من الحكمة ان تحسن الى عبدك بأن تسيء الى نفسك وتأتي من الفضل ما لا يجب بتضييع ما يجب ، وكثير الحمد ما لا يقوم بقليل النعم ، ولم يحمد الله ولم يعرف الهيته من جواز عليه صفات البشر ومناسبة الخلق ومقاربة العباد

وبعد فلا يخلو المولى في رفع عبده واكرامه من أحد أمرين : اما ان يكون لا يقدر على كرامته الا بهوان نفسه ، أو يكون على ذلك قادرا مع وفارة العظمة وتعام البهاء . وان كان لا يقدر على رفع قدر غيره الا بأن ينقص من قدر نفسه فهذا هو العجز وضيق الذرع ، وان كان على ذلك قادراً فآثر ابتذال نفسه

(١) هذا ناقص من النسخة التيمورية وموجود في نسخة دار الكتب الازهرية

والخط من شرفه فهذا هو الجهل الذي لا يحمل . والوجهان عن الله جل جلاله
منفيان . ووجه آخر تعرفون به صحة قولي وصواب مذهبي ، وذلك أن الله
تبارك وتعالى لو علم أنه قد كان فيما انزل من كتبه على بني اسرائيل أن أباكم كان
بكري وابني وانكم أبناء بكري لما كان يفضب عليهم اذ قالوا نحن أبناء الله ،
فكيف لا يكون ابن الله ابنه وهذا من تمام الاكرام وكمال المحبة ؟ ولا سيما ان
كان قال في التوراة : بنو اسرائيل أبناء بكري . وأنت تعلم أن العرب حين
زعمت أن الملائكة بنات الله كيف استعظم الله تعالى ذلك وأكبره وغضب
على أهله ، وان كان يعلم أن العرب لم تجعل الملائكة بناته على الولادة
واتخاذ الصاحبة ، فكيف يجوز مع ذلك أن يكون الله قد كان يخبر عباده قبل
ذلك بأن يعقوب ابنه وان سليمان ابنه وأن عزيز ابنه وأن عيسى ابنه ،
قله تعالى أعظم من أن يكون له ابوة من صفاته ، والانسان أحقر
من أن تكون بنوة الله تعالى من أنسابه . والقول بأن الله يكون أباً وجداً وأخاً
وعماً للنصارى الزم وان كان للآخرين لازماً ، لان النصارى تزعم أن الله هو
المسيح بن مريم وان المسيح قال للحواريين اخوتي ، فلو كان للحواريين أولاد
لجاز أن يكون الله عمهم . بل قد يزعمون أن مرقش هو ابن شمعون الصفا وان
زوزري ابنته وان النصارى تقر أن في انجيل مرقش « ما زاد أمك واخوتك
على الباب » وتفسير « ما زاد » معلم . فهم لا يمتنعون من أن يكون الله تبارك
وتعالى أباً وجداً وعماً

ولولا أن الله قد حكى عن اليهود أنهم قالوا ان عزيز ابن الله ، ويد الله
مغلولة ، وان الله فقير ونحن أغنياء . وحكى عن النصارى أنهم قالوا المسيح ابن
الله ، وقال قالت النصارى المسيح ابن الله . وقال لقد كفر الذين قالوا ان الله
ثالث ثلاثة - لكنت لآئن آخر من السماء أحب الي من أن اللفظ بحرف مما

يقولون ولكنى لا أصل الى اظهار جميع مخازيهم وما يسرون من فضائهم الا
بالاخبار عنهم والحكاية منهم

فان قالوا فاخبرونا عن الله وعن التوراة اليست حقاً ؟ قلنا نعم . قالوا : فان
فيها اسرائيل بكري وجميع ما ذكرتم عنا معروف في الكتب . قلنا : ان القوم
انما اتوا من قلة المعرفة بوجوه الكلام ، ومن سوء الترجمة ، مع الحكم بما
يسبق الى القلوب . ولعمري أن لو كانت لهم عقول المسلمين ومعرفتهم بما يجوز
في كلام العرب وما يجوز على الله مع فصاحتهم بالعبرانية لوجدوا لذلك الكلام
تأويلاً حسناً ومخرجاً سهلاً ووجهاً قريباً ولو كانوا أيضاً لم يعطلوا في سائر ما ترجعوا
إسكان لقائل مقال واطاعن مدخل ، ولكنهم يخبرون أن الله تبارك وتعالى قال في
العشر الآيات التي كتبها أصابع الله « انى أنا الله الشديد ، وانى أنا الله النقف ،
وأنا النار التي آكل النيران ، آخذ الابناء بحوب الآباء : القرن الاول والثانى
والثالث الى السابع » وان داود قال في الزبور « وافتح عينيك يارب » و « قم
يارب » و « أضع الي سمعك يارب » . وان داود خبر أيضاً في مكان آخر عن
الله تعالى فقال « وانتبه الله كما ينتبه السكران الذي قد شرب الخمر » وان
موسى قال في التوراة « خلق الله الاشياء بكلمته وبروح نفسه » وان الله قال في
التوراة لبني اسرائيل « بذراعي الشديد أخرجتكم من أهل مصر » وانه قال في
كتاب أشعياء « أحمد الله حمداً جديداً أحمده في أقاصي الأرض يملأ الجزائر
وسكانها والبحور والقفار وما فيها ويكون بنو قيدار في القصور وسكان الجبال »
يعنى قيدار بن اسماعيل « يصيحوا ويصيروا الله الفخر والكرامة ويلبسون
بحمد الله في الجزائر » وانه قال على أثر ذلك « ويحيى الرب كالجبار وكالرجل
الشجاع [المجرب ^(١)] ويزجر ويصرخ ويهيج الحرب والحمية ويقتل أعداءه

(١) الزيادة في نسخة دار الكتب الازهرية

يفرح السماء والارض » وان الله قال أيضاً في كتاب أشعيا « سكت قال هو مقى
أسكت مثل المرأة التي قد أخذها الطلق للولادة اتلف وان ترانى اريد أحرث
الجبال والشعب وأخذ بالعرب في طريق لا يعرفونه » وكلهم على هذا اللفظ
العربي مجمع ومعنى هذا لا يجوز أن أحد من أهل العلم ومثل هذا كثير تركته
لمعرفتكم به

وأنت تعلم أن اليهود لو أخذوا القرآن فترجموه بالعبرانية لأخرجوه من
معانيه وحوّلوه عن وجوهه . وما ظنك بهم اذا ترجموا « فلما آسفونا انتقمنا
منهم » و « ولتصنع على عيني » و « السموات مطويات بيمينه » و « على العرش
استوى » و « ناضرة الى ربها ناظرة » وقوله « فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا »
و « كلم الله موسى تكليماً » و « وجاء ربك والملك صفاً صفاً »

وقد تعلم أن مفسري كتابنا وأصحاب التأويل منا أحسن معرفة وأعلم بوجوه
الكلام من اليهود ومناولى الكتب ، ونحن قد نجد في تفسيرهم ما لا يجوز على
الله في صفته ولا عند المتكلمين في مقاييسهم ولا عند النحويين في عريتهم .
فما ظنك باليهود مع غباوتهم وغيهم وقلة نظرهم وتقليدهم . وهذا باب قد غلظت
فيه العرب أنفسهم ، وفصحاء أهل اللغة اذا غلظت قلوبها وأخطأت عقولها فكيف
بغيرها ممن لا يعلم كلامها ، سمع بعض العرب قول جميع العرب « القلوب بيد الله »
وقولهم في الدعاء « نواصينا بيد الله » وقوله جل ذكره « بل يدها مبسوطتان »
وقولهم « هذا من أيادي الله ونعمه عندنا » وقد كان من لغتهم أن الكف أيضاً
يد كما أن النعمة يد والقدرة يد فغلط الشاعر فقال :

هوّن عليك فان الامور بكف الاله مقاديرها

وقد كان ابراهيم بن سيار النظم يحيب بجواب ، وأنا ذا كره ان شاء الله
وعليه كانت علماء المعتزلة ، ولا أراه مقتعاً ولا شافياً . وذلك أنه كان يجعل

الخليل مثل الحبيب ومثل الولي ، وكان يقول خليل الرحمن مثل حبيبه ووليه وناصره
 وكانت الخللة والولاية والمحبة سواء قالوا ولما كانت كلها عنده سواء جاز أن يسمى
 عبداً له ولداً لمكان التربية التي ليست بمحضانة ، ولمكان الرحمة التي لا تشتق
 من الرحم ، لان انساناً لو رحم جرو كلب فرباه لم يجوز أن يسميه ولداً ويسمى
 نفسه له أباً ولو التقط صبيّاً فرباه جاز أن يسميه ولداً ويسمى نفسه له أباً لانه شبيهه
 ولده وقد يولد لمثله مثله ، وليس بين الكلاب والبشر أرحام . فاذا كان شبه
 الانسان أبعد من الله تعالى من شبه الجرو بالانسان كان الله أحق بأن يجعله ولده
 وينسبه الى نفسه . قلنا لابراهيم النظام - عند جوابه هذا وقياسه الذي قاس عليه
 في المعارضة والموازنة بين قياسنا وقياسه - : رأيت كلباً ألف كلاً به وحامى
 وأحمى دونه فأحياه بكسبه ولزمه على خلأته واستناره بالصيد دونه ، هل يجوز
 أن يتخذ به ذلك كله خليلاً مع بعد التشابه والتناسب ؟ فاذا قال لا قلنا فالعبد
 الصالح أبعد شبيهاً من الله من ذلك الكلب المحسن الى كلاً به ، فكيف جاز في
 قياسك أن يكون الله خليل من لا يشا كله لمكان احسانه ولا يجوز للكلاب أن
 يسمي كلبه خليلاً أو ولداً لمكان حسن تربيته له وتأديبه إياه ، ولمكان حسن
 الكلب وكسبه عليه وقيامه مقام الولد الكاسب والاخ والبار ؟ والعبد الصالح
 لا يشبه الله في وجه من الوجوه والكلب قد يشبه كلاً به لوجوه كثيرة ، بل
 ما أشبهه به مما خالفه فيه ، وان كانت العلة التي منعت من تسمية الكلب خليلاً
 وولداً أبعد شبيهه من الانسان

فلو قلتم : فما الجواب الذي أجبت فيه ، والوجه الذي ارتضيته ؟
 قلنا : ان ابراهيم صلوات الله عليه وان كان خليلاً فلم يكن خليلاً بخللة
 كانت بينه وبين الله تعالى لان الخللة والاخاء والصدقة والتصافى والخلطة وأشباه
 ذلك منفية عن الله عز ذكره فيما بينه وبين عباده ، على أن الاخاء والصدقة
 داخلتان في الخللة والخللة أعم الاسمين وأخص الحالين ، ويجوز أن يكون ابراهيم

خليلاً بالخلّة التي أدخلها الله على نفسه وماله . (١) وبين أن يكون خليلاً بخلّة
بينه وبين ربه فرق ظاهر وبون واضح . وذلك أن إبراهيم عليه السلام اختل في
الله تعالى اختلا لا لم يختلله أحد قبله : لقد فهم إياه في النار ، وذبحه ابنه ، وحمله
على ماله في الضيافة والمواساة والاثرة ، وبعداوة قومه ، والبراءة من أبويه في
حياتهما وبعد موتهما ، وترك وطنه والهجرة الى غير داره ومسقط رأسه . فصار
لهذه الشدائد مختلا في الله وخليلاً في الله . والخليل والمختل سواء في كلام العرب
والدليل على أن يكون الخليل من الخلّة كما يكون من الخلّة قول زهير بن أبي
سلي وهو يمدح هـرمياً :

وان أتاه خليل يوم مسألة يقول لا عاجز مالي ولا حرم
وقال آخر :

واني الى أن تسعفاني بحاجة الى آل ليلى مرة خليل

وهو لا يمدحه بأن خليله وصديقه يكون فقيراً سائلاً يأتي يوم المسألة
ويستط يدعه للصدقة والعطية ، وإنما الخليل في هذا الموضع من الخلّة والاختلال
لا من الخلّة والخلال . وكان إبراهيم عليه السلام حين صار في الله مختلاً أضافه الله
الى نفسه وأبانه بذلك عن سائر أوليائه فسماه « خليل الله » من بين الانبياء ، كما
سمى الكعبة « بيت الله » من بين جميع البيوت ، وأهل مكة « أهل الله » من
بين جميع البلدان ، وسمى ناقة صالح عليه السلام « ناقة الله » من بين جميع
النوق ، وهدنا كل شيء عظمه الله تعالى من خير وشر وثواب وعقاب ، كما
قالوا دعه في لعنة الله وفي نار الله وفي حرقه ، وكما قال للقرآن « كتاب الله »
وللمحرم « شهر الله » وعلى هذا المنال قيل لحمة رحمة الله عز ذكره ورضوانه
عليه « أسد الله » ونخالد رحمة الله عليه « سيف الله » تعالى وفي قياسنا هذا
لا يجوز أن الله خليل إبراهيم كما يقال ان إبراهيم خليل الله

(١) لعله سقط من هنا كلمة « وبين هذا »

فان قال قائل فكيف لم يقدموه على جميع الانبياء اذ كان الله قدمه بهذا الاسم الذى ليس لاحد مثله قلنا ان هذا الاسم اشتق له من عمله وحاله وصفته وقد قيل لموسى عليه السلام «كليم الله» وقيل لعيسى «روح الله» ولم يقل ذلك لابراهيم ولا لمحمد صلوات الله عليهما، وان كان محمد صلى الله عليه وسلم ارفع درجة منهم لان الله تعالى كلم الانبياء عليهم السلام على ألسنة الملائكة وكلم موسى كما كلم الملائكة فلهذه العلة قيل كليم الله، وخلق في نطف الرجال^(١) اذ قدفها في ارحام النساء على ما اجرى عليه تركيب العالم وطباع الدنيا، وخلق في رحم مريم روحا وجسداً على غير مجرى العادة وما عليه المناكحة، فلهذه الخاصة قيل له روح الله. وقد يجوز ان يكون في نبي من الانبياء خصلة شريفة ولا تكون تلك الخصلة بعينها في نبي ارفع درجة منه، ويكون في ذلك النبي خصال شريفة ليست في الآخر، وكذلك جميع الناس كالرجل يكون له أبوان فيحسن برهما وتماهدهما والصبر عليهما وهو أعرج لا يقدر على الجهاد وفقير لا يقدر على الانفاق، ويكون آخر لا أب له ولا أم له وهو ذو مال كثير وخلق سوى وجلد طاهر، فطاع هذا بالجهاد والانفاق وأطاع ذلك ببر والديه والصبر عليهما. والكلام اذا حرك تشعب، واذا ثبت اصله كثرت فنونه واتسعت طرقه. ولولا ملالة القارئ ومداراة المستمع لكان بسط القول في جميع ما يعرض أنتم للدليل واجمع للكتاب. ولكننا انما ابتدأنا الكتاب لتقتصر به على كسر النصرانية فقط

فصل منه

قلنا في جواب آخر: ان كان المسيح انما صار ابن الله لان الله خلقه من غير ذكر فأدم وحواء اذ كانا من غير ذكر وأنثى أحق بذلك ان كانت العلة في اتخاذها ولدا انه خلقه من غير ذكر، وان كان ذلك لمكان التربية فهل رباه الاحاد

(١) لم يرد في الاصل مفعول «خلق»

ابن موسى وداوود وجميع الانبياء ، وهل تأويل رباه الا غذاه ورزقه واطعمه وسقاه فقد فعل ذلك بجميع الناس ، ولم سميت سقيه لهم واطعامه اياهم تربية ؟ ولم قلت رباه وانتم لا تريدون الا غذاه ورزقه ؟ وهو لم يحضنه ولم يباشر تغليبه ولم يتول بنفسه سقيه واطعامه فيكون ذلك سبباً له دون غيره ، وانما سقاه ابن أمه في صغره وغذاه بالحبوب والماء في كبره

فصل منه

والاعجوبة في آدم عليه السلام أبداع وتربيته اكرم ومنقلبه أعلى وأشرف اذ كانت السماء داره والجنة منزله والملائكة خدامه بل هو المقدم بالسجود والسجود أشد الخضوع . وان كان بحسن التعليم والتنقيف فمن كان الله تعالى يخاطبه ويتولى مناجاته دون أن يرسل اليه ملائكته ويبعث اليه رسله اقرب منزلة وأشرف مرتبة وأحق بشرط التأديب وفضيلة التعليم . وكان الله تعالى يكلم آدم كما كان يكلم ملائكته ثم علمه الاسماء كلها ولم يكن ليعلمه الاسماء كلها الا بالمعاني كلها . فاذا ذلك كذلك فقد علمه جميع مصالحه ومصالح ولده ، وتلك نهاية طباع الآدميين ومبلغ قوى المخلوقين

فصل منه

فاما قولهم انا نقول على الناس مالا يعرفونه ولا يجوز أن يدينوا به وهو قولنا ان اليهود قالت ان الله تعالى فقير ونحن اغنياء ، وانها قالت ان يد الله مفلاة ، وانها قالت ان عزيراً بن الله ، وهم مع اختلافهم وكثرة عددهم ينكرون ذلك ويأبونه أشد الاباء . قلنا لهم : ان اليهود لعنهم الله تعالى كانت تطعن على القرآن وتلمس نقضه وتطلب عيبه وتخطيء فيه صاحبه وتأنيه من كل وجه وترصده بكل حيلة ، ليلتبس على الضعفاء وتستميل قلوب الأغنياء . فلما سمعت قول الله تعالى لبياده الذين أعطاهم قرضاً وسألهم قرضاً على التضعيف

يقال عز من قائل « ومن يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له » قالت اليهود على وجه الطعن والعيب والتخطئة والتعنت : تزعم أن الله يستقرض منا وما استقرض منا الا لفقره وغنانا فكفرت بذلك القول اذ كان على وجه التكنذيب والتخطئة لا على وجه أن دينها كان في الأصل أن الله فقير وأن عباده أغنياء . وكيف يعتقد انسان أن الله تعالى عاجز عما يقدر عليه مع اقراره بأنه الذي خلقه ورزقه وان شاء حرمه وان شاء عذبه وان شاء عفا عنه ، وقدرته على جميع ذلك كقدرته على واحد ، وبجاز الآية في اللغة واضح وتاويلها بين . وذلك أن الرجل منهم كان يقرض صاحبه لارفاقه ليعود اليه مع أصل ماله اليسير من ربحه ثم هو مخاطر به الى أن يعود في ملكه ، فقال لهم بحسن عادته ومنته : آسوا فقراءكم ، وأعطوا في الحق أقرباءكم من المال الذي أعطيتكم والنعمة التي خولتكم بأمرى أياكم وضمانى لكم فأعته منكم قرضاً وان كنت أولى به منكم فأنا موفيكم حقوقكم الى ما لا ترتقى اليه همة ، ولا تبلغه أمنية . على أنكم قد أمنت من الخطار وسلمتم من التفرير . والرجل يقول لعبده أسلفني درهما عند الحاجة تعرض له وهو يعلم أن عبده وماله له ، وانما هذا كلام وفعال يدل على حسن الملكة والتفضل على العبد والأمة واخبار منه لعبده أنه سيعيد اليه ما كانت سخط به نفسه . وهذا لا يغلط في الكلام ولا يضيق فيه ولكن المتعنت ليعتلق بكل سبب ويتشبث بكل ما وجد

وأما اخباره عن اليهود انها قالت « يد الله مغلولة » فلم يذهب الى أن اليهود ترى بأن ساعده مشدودة الى عنقه بغل . وكيف يذهب الى هذا ذاهب ويدين به دابن ، لانه لا بد من أن يكون يذهب الى أنه غل نفسه أو غله غيره وأيهما كان فانه منفى عن وهم كل بالغ بمحمل التكليف وعاقل بمحمل التثقيف .

ولكن اليهود قوم جبرية^(١) والجبرية تبخل الله مرة وتظلمه مرة وان لم تقرّ بلسانها وتشهد على اقرارها فقولهم « يد الله مغولة » يعنون برّه واحسانه ، وقولهم مغولة لأن غيره حبسه ومنعه ولكن اذا كان عندهم أنه الذي منع أيديه وحبس نعمه فهي محبوسة بحسبه ومنوعة بمنعه . والذي يدل على أنهم أرادوا باليدين النعمة والافضال دون الساعد والذراع جواب كلامهم حين قال « بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء » دليلا على ما قلنا وشاهدا على ما وصفنا . فان قالوا فكيف لم يُقل ان اليهود بمخلت الله وجحدت احسانه دون أن يقال ان يد الله مغولة . قلنا ان أراد الله الاخبار عن كفر قوم وسخطه عليهم فليس لهم عليه أن يعبر عن دينهم وعيوبهم بأحسن الخارج وبجملتها بأحسن الألفاظ ، وكيف وهو يريد التنفير عن قولهم وأن يغضبهم الى من سمع ذلك عنهم . ولو أراد الله تعالى تليين الأمر وتصغيره وتسهيله لقال قولا غير هذا وكل^(٢) صدق جائز في الكلام . فهذا مجاز مسألته في اللغة ، وهو معروف عند أهل البيان والنصاحة

وأما قولهم ان اليهود لا تقول ان عزيرا بن الله ، فان اليهود في ذلك على قولين : أحدهما خاص والآخر عام في جماعتهم . فلما اخاص فان ناسا منهم لما رأوا عزيرا أعاد عليهم التوراة من تلقاء نفسه بعد دروسها وشتات أمرها غلوا فيه وقالوا ذلك وهو مشهور من أمرهم ، وان فريقا من بقاياهم باليمن والشام وداخل بلاد الروم . وهؤلاء بأعيانهم يقولون « ان اسرائيل - الله ابنه » اذ كان ذلك على خلاف تناسب الناس ، وصار ذلك الاسم لعزير بالطاعة والعلامة والمرتبة لأنه من ولد اسرائيل . والقول الذي هو عام فيهم أن كل^(٣) يهودي ولده اسرائيل فهو ابن الله اذ لم يجدوا ابن ابن قط الا وهو ابن

(١) قال الشهرستاني في (الملل والنحل) ١ : ١٠٨ « الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته الى الرب تعالى . والجبرية أصناف : فالجبرية الخالصة هي التي لا تثبت للعبد فعلا ولا قدرة على الفعل أصلا » (٢) في الاصل « وحل » (٣) في الاصل « يكون »

فصل منه

فان قالوا أليس المسيح روح الله وكلمته كما قال عز ذكره « وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه » ، أليس قد أخبر عن نفسه حين ذكر أمه أنه نفخ فيها من روحه ، أليس مع ذلك قد أخبر عن حصانة فرجها وطهارتها ^(١) أو ليس مع ذلك قد أخبر أنه لا أب له وأنه كان خالقا اذ كان يخلق من الطين كهيئة الطير فيكون حيا طائرا ، فأى شيء نفى ^(٢) من الدلالات على مخالفته بمشاكاة جميع الخلق ومباينة جميع البشر ؟ قلنا لهم : انكم انما سألتمونا عن كتابنا وما يجوز في لغتنا وكلامنا ولم تسألونا عما يجوز في لغتكم وكلامكم . ولو أننا جوزنا في لغتنا ما لا يجوز وقلنا دلي الله ما لا نعرف كنا بذلك عند الله والسامعين في حد المكابرين وأسوأ حالا من المنقطعين ، وكنا قد أعطيناكم أكثر مما سألتكم وجزنا بكم فوق أمنيته . ولو كنا اذا قلنا « عيسى روح الله وكلمته » وجب علينا في لغتنا أن يجعله الله ولدا ونجعله مع الله تعالى إلهاً ونقول ان روحا كانت في الله فانفصلت منه الى بدن عيسى وبطن مريم فكنا اذا قلنا ان الله سمى جبريل روح الله وروح القدس وجب علينا أن نقول فيه ما يقولون في عيسى ، وقد علمتم ان ذلك ليس من ديننا ولا يجوز ذلك بوجه من الوجوه عندنا ، فكيف نظهر للناس قولا لا نقوله وديننا لا نرضيه . ولو قال جل ذكره ^(٣) « فنفخنا فيه من روحنا » يوجب نفخا كنفخ الزق أو كنفخ الصائغ في المنفاخ ، وأن بعض الروح التي كانت فيه انفصلت الى بطنه وبطن أمه ^(٤) ، لكان قوله في آدم

(١) عبارة الاصل « أو ليس مع ذلك قد أخبر أنه عن حصانة فرجها وطهارتها أخبر أنه نفخ فيها من روحه » وفيه زيادة وتكرير نظنه من الناسخ (٢) كذا في الاصلين ومفهوم الجملة غير ظاهر (٣) هكذا في الاصل ولعله « ولو كان قوله حل ذكره » (٤) في الاصل « انفصلت فاصلة الى بطنها وبطن أمها »

يوجب له ذلك لأنه قال « وبدأ خَلَقَ الانسان من طين ثم جعل نسله - الى قوله - ونفخ فيه من روحه » وكذلك قوله « فاذا سَوَّيْتُهُ ونفختُ فيه من رُوحِي فقموا له ساجدين » والنفخ يكون من وجوه والروح يكون من وجوه، فمنها ما أضافه الى نفسه ومنها ما لم يضفه الى نفسه، وأنا يكون ذلك على قدر ما عظم من الأمور، فما سمي روحاً وأضافه الى نفسه جبريل الروح الأمين وعيسى بن مريم، والتوفيق كقول موسى حين قال ان بنى فلان أجابوا فلانا النبي ولم يجيبوك فقال له ان روح الله مع كل أحد. وأما القرآن فان الله سماه روحاً وجعله يقيم للناس مصالحهم في دنياهم وأبدانهم، فلما اشتبها من هذا الوجه ألزهما اسمهما فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم « وكذلك أوحينا اليك رُوحاً من أمرنا » وقال « تنزل الملائكةُ والروح فيها »

فصل منه

قد قلنا في جواباتهم، وقومنا مسائلهم بما لم يكونوا ليباغوه لأنفسهم ليكون الدليل تاماً والجواب جامعاً، وليعلم من قرأ هذا الكتاب وتدبر هذا الجواب اننا لم نفتنهم عجزهم ولم ننتهز غرثهم، وان الادلال بالحجة والثقة بالغليج والنصرة هو الذي دعانا الى أن نخبر عنهم بما ليس عندهم وألا نقول في مسائلهم بمعنى لم ينتبه له منتبه أو يشير اليه مشير وألا يوردوا فيما يستقبلون على ضعفائنا ومن قصر نظره منا شيئاً الا والجواب قد سلف فيه وألسنتهم قد دلت به

وسنسألهم ان شاء الله ونجيب عنهم ونستقصى لهم في جواباتهم كما سألنا لهم أنفسنا واستقصينا لهم في مسائلهم. فيقال لهم: هل يخلو المسيح أن يكون إنساناً بلا إله، أو إلهاً بلا انسان، أو أن يكون إلهاً وإنساناً. فان زعموا أنه كان إلهاً بلا انسان، قلنا لهم: فهو الذي كان صغيراً فشب والتحق، والذي كان يأكل

ويشرب وينجو ويبول ، وقتل بزعمكم وصلب ، وولده مريم وأرضعته . أم غيره .
هو الذى كان يأكل ويشرب على ما وصفنا ؟ فأى شيء معنى الانسان الا ما
وصفنا وعددنا ؟ وكيف يكون إلهاً بلا انسان وهو الموصوف بجميع صفات
الانسان . وليس القول فى غيره ممن صفته كصفته الا كالقول فيه كاشتائها على
غيره . وان زعموا أنه لم ينقلب عن الانسانية ولم يتحول عن جوهر البشرية
ولكن لما كان اللاهوت فيه صار خالقاً وسمى إلهاً ، قلنا لهم : خبرونا عن
اللاهوت أكان فيه وفي غيره أم كان فيه دون غيره ؟ فان زعموا أنه كان فيه
وفي غيره فليس هو أولى بأن يكون خالقاً ويتسمى إلهاً من غيره ، وان كان فيه
دون غيره فقد صار اللاهوت جسماً . وسنقول فى الكسر عليهم اذا صرنا الى
القول فى التشبيه وهو قول منعلم^(١) والذى كان عليه جماعتهم الا من خالفهم من
متكلميهم ومتفلسفيهم فانهم يقولون بالتشبيه والتجسيم فراراً من كثرة الشناعة
وعجزاً عن الجواب ، وكفى بالتشبيه قبحاً . وهو قول يعم اليهود واخوانهم من
الرافضة وشياطينهم من المشبهة والحشوية النابتة . وهو بعد متفرق فى الناس *
والله تعالى المستعان

﴿ انتهى ﴾

نقلا عن نسخة الخزانة التيمورية بالقاهرة * رقم ١٩ أدب
بخط محمد بن عبد الله بن ابراهيم الزمرانى فى ذى القعدة سنة ١٣١٥ هـ
وهى منقولة عن نسخة كتبت فى رجب عام ٤٠٣ هـ بخط أبي القاسم عبيد الله بن على

أخلاق الكتاب

لابي عثمان عمرو بن بحر الجاهظ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حفظك الله وإبقاك ، وأمتع بك * قد قرأت كتابك ، ومدحتك أخلاق
الكتاب وفعالهم ، ووصفك فضائلهم وأيامهم ، وفهمته

ومنى وقع الوصف من القائل تقصيا ، والنعمة من الواصف تألفا ، قل
شهادؤه ، وكثير خصماؤه ، وخفت المثونة على مجاوبيه فى دعواه ، وسهلت مناصبه
الادنياء له فى معناه . لان اغلاظ الحجن ما عرض على المشهود فأزاله ، وتصفحه
المعقول فأحاله . وأضعف العلل ما التمس بعد المعلول ، ونصبت له علما على الموجود
بعد الوجود ، وإذا تقدم المعلول عنه وانحصر عنه خبره استغنى عن الحاكم ، وظهر
عوار الشاهد * فقد رأيتك أطنبت باحماد هذا الصنف من الناس ، وحكمت
بفضيلة هذه الطبقة من الخلق ؛ فعلمت ان فرط الاعجاب من القائل منى وافق
صناعة المادح رسخ فى التركيب هواه ، ورسبت فى القلوب اوتاده ، واشتد على
الناظر افهامه ، وعلى الخصام بالحق توقيفه ، وكان حكمه فى صعوبة فسخته ،
وتعذر دفعه ، حكم الاجماع اذا لاقى محكم التنزيل * ولست أدعى مع ذلك
توقيفك على موضع ذلك فى الاحتجاج ، وتنبيهك على النكتة من غلطك فى
الاعتلال بما لا يمكن السامع انكاره ، ولا ينسأغ له ابطاله . وأبين مع ذلك رداءة
مذاهب الكتاب وفعالهم ، ولؤم طبائعهم وأخلاقهم ، بما تعلم أنت - والناظر فى
كتابى هذا - أنى لم أقل الا بعد الحجة ، ولم أحتج الا مع ظهور العلة . ثم استشهد
مع ذلك الاضداد تبيانا ، وما اجمع عليه الاعداء انصافا ، اذ كان فى ذلك من التبيان
ما يبيهرهم ، ومن القول ما يسكتهم . ثم أقول : ما ظنك بقوم منهم أول مرتد كان

في الاسلام كتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فخاف في كتابه املاءه فانزل الله فيه آيات من القرآن نهى فيها عن اتخاذه كتابا فهرب حتى مات بجزيرة العرب كافراً ، وهو عبد الله بن سعد بن أبي سرح . ثم استكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده معاوية بن أبي سفيان فكان أول من غدر في الاسلام بأمامه ، وحاول نقض عرى الايمان بآثامه

وكتب عثمان بن عفان رضى الله عنه لابي بكر رضى الله عنه مع طهارة اخلاقه وفضائل أيامه ، فلم يمت حتى أداه عرق الكتابة الى ذم من ذمه من أوليائه ثم كتب لعمر بن الخطاب رضى الله عنه زياد بن أبيه فانعكس شر ناشئ في الاسلام : نقضت بدعوته السنة ، وظهرت في أيام ولايته بالعراق الجبرية ثم كتب لعثمان بن عفان رضى الله عنه مروان بن الحكم فخانه في خاتمه وأشعل الرعية حرباً عليه في ملكه

ثم أفضى الامر الى علي بن ابي طالب رضى الله عنه فتبين من البصيرة في الكتاب ما لم ير التنويه بذكر كاتب حتى مات

ولو كانت الكتابة شريفة واخلط فضيلة ، كان أحق الخلق بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أولى الناس ببلوغ الغاية فيها ساداتهم وذوو الفضل والشرف فيهم . ولكن الله منع نبيه صلى الله عليه وسلم ذلك ، وجعل الخط منه دنية ، وسد العلم به على النبوة . ثم صير الملك في ملكه ، والشريف في قومه ينجح برداء الخط ، وينبل بقمح الكتاب . وان بعضهم كان يقصد لتقبيح خطه وان كان حلواً ، ويرتفع عن الكتاب بيده وان كان ماهراً ، وكان ذلك عليه سهلاً ، فيكلفه تابعه ويحتشم من تقليده الخطير من جلسائه

وكتب احمد بن يوسف يوما بين يدي المأمون خطا اعجبه فقال : وددت والله أني كتبت مثله وأنى مغرم الف الف . فقال له احمد بن يوسف : لا تأس

عليه يا أمير المؤمنين ، فانه لو كان حظا ماحرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع ذلك ان قبج الكتابة بنى على انه لا يتقلدها الا تابع ، ولا يتولاها الا من هو في معنى الخادم . ولم نر عظيما قط تولاه بنفسه أو شارك كاتبه في عمله . وكل كاتب فمحكوم عليه بالوفاء ، ومطلوب منه الصبر على اللأواء . وتلك شروط متنوعة عليه ، ومحنة مستمرة لديه . وليس للكاتب اشتراط شيء من ذلك ، بل يناله الاستبطاء عند أول الزلة وان أكدى ، ويدركه العدل بأول هفوة وان لم يرض . تجب للعبد استزادة السيد بالشكوى ، والاستبدال به اذا انتهى . وليس للكاتب تقاضي فائته اذا ابطأ ، ولا التحول عن صاحبه اذا التوى . فأحكامه احكام الارقاء ، ومحل من الخدمة محل الاغبياء . ثم هو مع ذلك في الذروة القصوى من الصلف ، والسنام الاعلى من البذخ ، وفي البحر الطامي من التيه والسرف . يتوهم الواحد منهم اذا عرض جيبته ، وطول ذيله ، وعقص على خده صدغه ، وتحذف الشابورتين ^(١) على وجهه ، انه المتبوع ليس التابع ، والمليك فوق المالك . ثم الناشيء فيهم اذا وطىء مقعد الرئاسة ، وتوركت مشورة الخلافة ، وحجزت السلة دونه ، وصارت الدواة امامه ، وحفظ من الكلام فتيقه ، ومن العلم ملحه ، وروى لبرزجر امثاله ، ولاردشير عهده ، ولعبد الحميد رسائله ، ولابن المقفع أدبه ، وصير كتاب مزدك معدين علمه ، ودفتر كليلة ودمنة كنز حكمته ، انه الفاروق الاكبر في التدبير ، وابن عباس في العلم بالتأويل ، ومعاذ بن جبل في العلم بالحلال والحرام ، وعلي بن ابي طالب في الجرأة على القضاء والاحكام ، وابو الهذيل العلاف في الجر والطفرة ، وابراهيم بن سيار النظام في المكامنات ^(١) والمجانسات ، وحسين النجار في العبادات والقول بالانبات ، والاصمعي وابو عبيدة في معرفة اللغات والعلم بالانساب ، فيكون اول بدوه الطعن على القرآن في تأليفه ، والقضاء

عليه بتناقضه . ثم يظهر فيه ظرفه بتكذيب الاخبار ، وتهجين من نقل الآثار ، فان استرجح أحد اصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم قتل^(١) عند ذكرهم شذقه ، ولوى عن محاسنهم كشحه . وان ذكر شريح جرحه ، وان نعمت له الحسن استنقله ، وان وصف له الشعبي استحقة ، وان قيل له ابن جبير استجبهله ، وان قدم عنده النخعي استصغره . ثم يقطع ذلك من مجلسه بسياسة اردشير بابكان ، وتديبر أنوشروان ، واستقامة البلاد لآل ساسان . فان حذر العيون ، وتفقدت المسلمون رجع بذكر السنن الى المعقول ، ومحكم القراءن الى المنسوخ ، ونفى مالا يدرك بالعيان وشبه بالشاهد الغائب . لا يرتضي من الكتب الا المنطق ، ولا يحمد الا الواقف ، ولا يستجيد منها الا السائر . هذا هو المشهور من افعالهم ، والموصوف من اخلاقهم ومن الدليل على ذلك أنه لم يُر كاتب قط جعل القراءن سميره ، ولا علمه فسيره ، ولا التفقه في الدين شعاره ، ولا الحفظ للسنن والآثار عماده . فان وجد الواحد منهم ذاكراً شيئاً من ذلك لم يكن لدوران فكيه به طلاقة ، ولا المحبة^(٢) منه حلاوة ، وان آثر الفرد منهم السعي في طلب الحديث ، والتشاغل بذكر كتب المتنقيين ، استنقله أقرانه واستوخه ألافه ، وقضوا عليه بالادبار في معيشته ، والحرفة في صناعته ، حين حاول ما ليس من طبعه ، ورام ما ليس من شكله .

قال الزهري لرجل : أبعجبك الحديث ؟ قال نعم . قال أما انه لا يعجب الا الفحول من الرجال ولا يبغيضه الا اناهم . ولئن وافق هذا القول من الزهري فيهم مذهباً ان ذلك ليبين في شمائلهم ، مفهوم في اشاراتهم . وسئل ثمامة بن أشرس يوماً وقد خرج من عند عمرو بن مسعدة فقيل له : يا أبا معن ما رأيت من معرفة هذا الرجل ، وبلوت من فهمه ؟ فقال : ما رأيت قوماً

(١) الاصل « فنك »

(٢) كذا بالاصل ولعلها محرفة عن كلمة « لمجلسه » او « لمحبه » أو غير ذلك

نفرت طبائهم عن قبول العلوم ، وصغرت همهم عن احتمال لطائف التمييز ،
فصار العلم سبب جهلهم ، والبيان علم ضلالتهم ، والفحص والنظر حايده عنهم ،
والحكمة معدن شبههم [أكثر] من الكتاب

وذكر أبو بكر الاصم ابن المقفع فقال : ما رأيت شيئاً الا وقليله أخف من
كثيره الا العلم فانه كلما كثر خف محمله ، ولقد رأيت عبد الله بن المقفع هذا في
غزارة علمه ، وكثرة روايته كما قال الله عز ذكره « كمثل الحمار يحمل أسفارا »
قد أوهنه علمه ، وأذهله حلمه ، وأعنته حكمته ، وحيرته بصيرته

وكنا في مجلس بشر بن المعتمر يوما وعنده المدكان^(١) ونامة الغلال في جماعة
من المعتزلة وأصحاب الكلام ، فتذاكروا العوام ، واستحوذ الفتنة عليهم في التقليد ،
واستغلاف قلوبهم بكثير مما ليس من طبعهم ،^(٢) فتعظمهم وتقضي لكل من نبيل
منهم بالصواب في قوله وان لم يعلموا . لا يدينون بالحقيقة ، ولا يحمدون الا ظاهر
الخلية . ومن الدليل على ندالة طبعهم والعلم بسفالة رأيهم ، تقديمهم بالفضل لمن
لا يفهمونه ، وقضاؤهم بالعلم لمن لا يعرفونه ، حتى انهم يضربون بالكتاب فيما
بينهم المثل ، ويحكمون له بالبصيرة في الادب ، على غير معاشرة جرت بينهم
ولا محبة ظهرت لهم منه ، ليس الا أن همهم صغرت عنهم ، وامتلات قلوبهم
منهم ، فصار المحفوظ من أقوالهم والذي يدينون به من مذاهبهم : كيف لا يأمن
فلان الخطأ مع جلالتهم ، وكيف ينساغ لاحد تجهيله مع نبيله ؟ فان وقعوا
على تمييزه هابوه ، وان دعوا الى تفهيمه أكبروه ، وقالوا لم ينصب هذا بموضعه
الا لخاصة فيه وان جهلناها ، وفضيلة موسومة وان قصر علمنا عنها . ولعله عمر
ابن فرج في السفه والمباهة ، وابراهيم بن العباس في الشره والرقاعة ، ونجاح

(١) كذا الاصل

(٢) لعله سقط من هنا كلام يرجع اليه ضمير « هم » في قوله « فتعظمهم »

ابن سلمة في الطيش والسخافة ، وأحمد بن الخصيب في اللؤم والجهالة ، وآل وهب في النهم والنذالة ، ويحيى بن خاقان في الذل والفاقة ، وموسى بن عبد الملك في الرخم والبلادة ، وابن المدبر في الخب والمكابرة ، والفضل بن مروان في الغدامة القصوى ^(١) . وفي عمر بن فرج يقول الشاعر :

لا تطلبن الخير من بني فرج لا بارك الله في بني فرج
والعن إذا مالقيته عمرأ لعنا يقينأ بأعظم الهرج
فلعنة ان لعنتها عمرأ تعدل مقبولة من الحجج

ليس على المفترى على عمر ^(٢) من ضرب حد يخشى ولا حرج
وخبرت أن أبا العتاهية أتى يحيى بن خاقان يوماً ليسلم عليه فلم يأذن له حاجبه
فانصرف . وأتاه يوماً آخر فصادفه حين نزل فسلم عليه ودخل يحيى الى منزله ولم
يأذن له ، فكتب اليه أبو العتاهية من ساعته رقعة فيها :

أراك حين ترى خيالي فما هذا يروعك من خيالي ^(٣)
لعلك خائف مني سؤالاً ألا فلك الامان من السؤال
كفيتك ان حالك لم تل بي لا طلب مثلها بدلا بحالي
وان اليسر مثل العسر عندي بايها منيت فما أبالي

فلما قرأ يحيى بن خاقان رقعته ووثق بأمانه إياه من السؤال أذن له ، فخرج
الحاجب فوجده قد انصرف ولم يعد اليه ولا التقيا بعد ذلك

وجلس الجاحظ ^(١) يوماً في بعض الدواوين فتأمل الكتاب فقال : خَلَقَ حلوة ،
وشمائل معشوقة ، وتظرف أهل الفهم ، ووقار أهل العلم ، فان أقيمت عليهم
الاخلاص ^(٢) وجدتهم كالزبد يذهب جفاء ، وكنبنة يحرقها الهيف من الرياح ^(٣) ،
لا يستندون من العلم الى وثيقة ، ولا يدينون بحقيقة . أخفر الخلق لاماناتهم ،

(١) كانت بالاصل « في انعدام مقصوده » (٢) كذا الاصل

(٣) الهيف ريع حارة تأتي من جهة اليمن نكباء بين الجنوب والدبور

وأشراهم بالثمن الخسيس ليهودهم ، الويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون

ثم وصف أصحاب الصناعات ، وذكر تعاطف أهلها على نظرهم ، وتعصب رجالها على غيرهم ، فقال :

لا أعلم أهل صناعة الا وهم يجرون في ذلك الى غاية محودة ، ويأتون منه آية مذكرة ، الا الكتاب : فان أحدهم يتحاذق عند نظرائه بالاستقصاء على مثله ، ويسترجع رأيه اذا بلغ في نكايه رجل من أهل صناعته . ثم ضرب لهم في ذلك مثلاً قال : هم كالمهررة من الكلاب في مرايضها يمر بها أصناف الناس فلا تتحرك ، وان مر بها كلب مثلها نهضت اليه بأجمعها حتى تقتله

وحدثني عمر بن سيف أنه حضر مجلس أبي عباد ثابت بن يحيى^(١) يوماً في منزله وعنده جماعة من الكتاب فذكر ما هم عليه من ملائم الاخلاق ، ومدانس الافعال قال - ووصف تقاطعهم عند الاحتياج ، [وعدم] تعاطفهم عند الاختلال ، وزهدهم في المواصلة فقال - :

معاشر الكتاب ، لا أعلم أهل صناعة أملاً لقلوب العامة منكم ، ولا النعم على قوم أظهر منها عليكم . ثم انكم في غاية التقاطع عند الاحتياج ، وفي ذروة الزهد في التعاطف عند الاختلال ؛ وانه ليلغى أن رجلاً من القصابين يكون في سوقه فيتلف ما في يديه فيخلى له القصابون سوقهم يوماً ويجعلون له أرباحهم فيكون يربحها منفرداً ، وبالبيع مفرداً ، فيسدون بذلك خلته ، ويجبرون منه كسره . وانكم لتتناكرون عند الاجتماع والتعارف ، تناكر الضباب والسلاحف . ثم مع استحواذكم على صناعتكم وقلة ملابس أهل الصناعات لها معكم ، لم أر صناعة من

(١) كان كاتب امير المؤمنين المأمون . انظر بعض اخباره في تاريخ ابن عساکر طبع دمشق (٣ : ٣٧٢)

الصناعات الا وقد يجمع أهلها غيرها اليها فيعانونها جميعاً ، وينزلون^(١) لضرب
التجارات معاً. الا صناعتكم هذه ، فان المتعاطي لها منكم والمتسمى بها من نظرائكم
لا يليق به ملاسة سواها ، ولا ينسأغله التشاغل بغيرها . ثم كأنكم أولا دَعَلَات
وضرائر أمهات ، في عداوة بعضكم بعضاً وحنق بعضكم على بعض . أف اكم
ولاخلاقكم ان للكتاب طبائع لثيمة ، ولولا ذلك لم يكن سائر أهل التجارات
والمكاسب بنظر انهم بررة ، ومن ورأهم لهم حفظة . وأنتم لاشكالكم مذلون ،
ولأهل صنائعكم قالون . قبح الله الذي يقول قضينا في الامور بالاغلب ، وعرفنا
علل الناس في تكاسبهم وتعاملهم ، فن كانت علته أكرم كان كرم فعاله أعم ،
ولست أعلم علة في مكتسب أنبل عند الخاصة من مكسبكم

ثم وصف من سلف من هذه الطبقة يوماً فقال : كتب سالم لهشام بن
عبد الملك وكان أشد الناس غلطا ، وأضعفهم رأيا . وكان هشام يحضره ، فيسمع
من ضعفه ، ويستميحه الرأي يهزأ به . ثم كتب لهم مسعدة ، وكان مؤدبا ،
وكانت ضعفة المؤدبين فيه . ثم كتب لهم عبد الحميد وكان معلماً ، وبتحامله على
نصر بن سيار انتقضت خراسان ، وزال ملك بني مروان . ثم كتب لابي العباس
عبد الله بن المقفع فاعرى بهم عبد الله بن علي ففطن له وقتل وهدم البيت على
صاحبه . ثم كتب لهم يونس بن أبي فروة وكان زنديقاً فطلب فاختفى بالكوفة ،
واكتبل حتى هلك . واستكتب الرشيد يزيد ابعادان^(٢) على ديوان الخراج وكان
ثنويا . ثم لم ينوهوا بذلك كاتب حتى ولي المأمون فقدم معه ابن أبي العباس
الطوسي فيه انتشرت السعاية بالعراق . واستكتب أبا عباد وكان باثري مؤدبا ،
وكان سخيلاً حديداً ولم يزل بمكانه في ديوانه فيما لابن أبي خالد الأحول والاسم
له . ثم كتب له رجاء بن ابى الضحاك وكان أظلمهم وأغشمهم . واستخلف

(١) في الاصل « فيعانونها جميعاً ويتركون » (٢) كذا الاصل

حفصويه على ديوان الخراج وكان ريكاً لسماعيته . ثم كتب لهم ابن يزدان وكان
اشقاهم حتى هلك . وكتب لهم عمرو بن مسعدة وكان رسائلياً فقط .
واسترجع المأمون - وهو بخراسان قبل مقدمه - من كتاب العراق على غير
بلوى ابراهيم بن اسماعيل بن داود وأحمد بن يوسف ، فلما قدم امتحنهما فنعسا ،
واستنهضهما في الاعمال ففشلا ، فلم يعملوا على شيء حتى هلكا . وكان ابراهيم
شغوياً ، وكان يتهم بالثنوية فأن كان ذلك صحيحاً ، فقد كانت صبايته بها على جهة
التقليد فيها ، لا على جهة التفتيش والاحتجاج فيها . فهذه علة المرتد من سائر
الكتاب . وقد قال أهل الفطن ان محض العمى التقليد في الزندقة ، لأنها اذا
رسخت في قلب أمري ، تقليداً أطالت جرأته ، واستغلق على أهل الجدل إفهامه ؟
وكان أحمد بن يوسف مأفوناً وهو أول من عرف بالآفة المخالفة لطبع الكتاب ،
واستقضى على ديوان الخراج والجند ابراهيم الحاسب ، والحسن بن أبي المشرف .
فلقن ابراهيم من سائر الآداب والعلوم علم الحساب فقط ، ولم يفرع اليه في قضية
ولا رأي حتى هلك . فكان الذي وضعه وأدناه شرهه وهي علة قائمة في كتاب
الجند خاصة . واستضعف ولادة الدواوين الحسن بن أبي المشرف عند قول الفضل
ابن مروان له - وهو على الوزارة - يا حسن ، احتجنا الى رجل جزل في رأيه ،
متوفر لأمانته ، متصرف في الامور بتجربته ، مستقدر على الاعمال بعمله ،
تصف لنا مكانة ، وتشير علينا به فنقلده جسيماً من عملنا . فاجابه سريعاً قال :
وجدته لك أصلحك الله كذلك ، قال من هو ؟ قال : أنا . وألح عليه في قوله ،
فتبسّم الفضل وقال : هذا من غيرك فيك أحسن منك بلسانك لك ! نعود وننظر
أن شاء الله

وحسبك بقوم أنبلهم أخسهم في الرزق مرتبة ، واعظمهم غناء أقلهم عند
السلطان عقلاً . يرزق صاحب ديوان الرسائل - ولسانه يخاطب الخلق -

العشر من رزق صاحب الخراج . ويرزق المحرر - وبخطه يكون جمال كتب الخليفة - الجزء من رزق صاحب النسخ في ديوان الخراج . لا يحضر كاتب الرسائل لثأبة ، ولا يفزع اليه في حادثة ، فإذا أبرم الوزراء التدبير ، ووقفوا منها على التقدير ، طرحت اليه رقعة بمعاني الامر لينسق فيه القول ، فإذا فرغ من نظامه ، واستوى له كلامه ، أحضر له محرراً فجلس في أقرب المواطن من الخليفة ، وأتمتع المنازل من المختلفة ، فإذا انقضى ذلك فيها والعوام سواء !

هذا وليست صناعتها بفاشية في الكتاب ، ولا بمجودة في العوام ، فأغزهم علماء أمهم ، وأقربهم من الخليفة أهونهم ! فكيف بكاتب الخراج الذي علمه ليس بمحظور ، وأشارك الناس فيه ليس بممنوع ، يصلح لموضعه كل من عمل وعمل عليه . أحمد أحواله عند نفسه التعمد على الخصوم ، وأسعد أموره التي يرجو بها البلوغ الشره ومنع الحقوق ، وأحذق ما يكون بصناعته عند نفسه حين يأخذ بأبطال السنن ويعمل بفلتات الدفع . ولذلك ما ذكر أن بعض رجال الشعبي قال له يا أبا عمرو الكتاب شرار خلق الله ^(١) لا تفعل . ولكن الشعبي كان لسلطانه مداريا

ومن كتاب الجند محمود بن عبد الكريم . كان حميد بن عبد الحميد - عند دخول المأمون مدينة السلام وبعد سكون الهبيج وخمود الثائرة - رفع الى المأمون يذكر أن في الجند دغلا كثير آمن دخل فيه بسبب تلك الحروب في أيام الاجناد [وهم] قوم من غير أهل خراسان ممن تشبه بهم وادعى اليهم من الأعراب والدعاة ومن لا يستحق الديوان ، وقوم من أهل خراسان صارت لهم الخواص السنية لم يكن لهم من العناء ما يستحقون به مثلها . وذكر أن بيت المال لا يحمل ذلك . وسأل المأمون أن يوليّه تصنيف الجند . ولم يكن مذهب حميد في ذلك التوفير على المأمون ، ولا

(١) لعل هنا نقصاً ، أو لعل كلمة « لا تفعل » محرفة عن « فانتقل » أو غير ذلك

الشفقة على بيت مال المسلمين ، ولكنه تعصب على أبناء أهل خراسان واضطغن عليهم محاربتهم إياه أيام الحسن بن سهل مع ولده محمد بن أبي خالد وغيرهم ، وما كانوا قد انتحوه به من تلك الوقائع والهزائم وما ذهب له من الأموال بذلك السبب ، فولاه المأمون التصنيف وأمر للجند برزق شهرين. فولي حميد العطاء والتصنيف محمود بن عبد الكريم الكاتب ، وعرف محمود ماعني ^(١) حميد فتحامل على الناس واستعمل فيهم الاحقاد والاحن وخفض ^(٢) الأرزاق ، وأسقط الخواص ، وبعث في الكور وأنحى على أهل الشرف والبيوتات ، حسداً لهم وشفاء لغيلل صاحبه منهم ^(٣) فقصد لهم بالمكروه والتعننت ، فامتنعت طائفة من الناس من التقدم الى العطاء وتركوا أسماءهم وطائفة انتدبوا مع طاهر بن الحسين بخراسان فسقط بذلك السبب بشرته كثير . ثم ان المأمون أمر للناس بتمام أعطياتهم ، واكتسب محمود بن عبد الكريم المذمة وصار ملعنة في محال بغداد وفي مجالسها وطرقها

وممنهم زيد بن أيوب الكاتب عمل في ديوان الجند أربعين سنة ثم صار في آخر أيامه قواداً ليحيى بن أكنم القاضي. وذلك أن المأمون أمر له بفرض ، فصير يحيى بن أكنم أمر ذلك الفرض الى زيد بن أيوب ، وأمره ألا يفرض الا لامريء بارع الجمال حسن القد والصورة ، فكان أمر ذلك الفرض مشهوراً متعلماً ، ففي ذلك يقول الحسن بن علي الحرمازي لزيد بن أيوب :

يازيد يا كاتب فرض الفراش أكل هذا طلب للمعاش

مالي أرى فرضك حملانهم يثبت في القرنين قبل الكباش

وعلى ذلك فانه لم يبلغني أنه كان في ولاية ديوان الجند ولا في كتابهم مثل

المالي بن أيوب في نبلة وارتفاع همته وكرم صحبته وعفافه وجميل مذهبه وشدة

(١) في الاصل « ماعز » (٢) في الاصل « والدمن وحفظ » (٣) في الاصل « واشفى لغيلل صاحبه منه »

محاماته عن صحبه وتحرم به ، فكان المأمون يعرف له ذلك ومن بعده من
الخلفاء . فثبتت وطأته ، ودامت ولايته ، وحمد أثره

*
**

قد أتينا على بعض ما أردنا فيما له قصدنا ، ولم نستعمل الانتزاعات فيما
ذكرنا ، وأعرضنا عن التأويلات فيما وصفنا ، وقصدنا الى المأثور فحسيناه ، والى
المذكور في الازمنة فأجريناه . لئلا يجد الطاعن فيما وصفنا مقالا ، والمنكر لندم ما
ذمنا مساغا . وعلمنا أن من عاند مع ذلك فقد دفع عيانا ، وأنكر كائناً مذكوراً ،
وفي ذلك دليل باهر على اضمحلاله ، وشاهد عدل لاضداده . ولو حكينا كل ما
في هذا الجنس من الاقوال ، وما يدخله من المقاييسات والاشكال ، لطال الكتاب
ولله الناظر المعجاب . فاكثفينا بالخبر من الكتاب ، والبعض دون التمام . وعلمنا
أن الناظر فيه ان كان فطنا أقتنه القليل فقصى به ، وان كان بليداً جهولاً لم يزد
الا كثار الاعيا ، ومن العلم بما له قصدنا الا بعدا * وبالله الكفاية والتوفيق



وجد في آخر نسخة الاصل المحفوظة بالمجموعة رقم ١٠٠ من خزانة نور الدين بك مصطفى
بالقاهرة مانعه :

تم كتاب ذم أخلاق الكتاب بعون الله ومنه ، ومشيتته وتوفيقه *
والله تعالى الموفق للصواب ، والحمد لله أولاً وآخراً * وصلواته
على سيدنا محمد نبيه ، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين *
وهو حسبننا ونعم الوكيل * فرغ من تنميته صبيحة يوم السبت لثمان
وعشرين من شهر ربيع الاول من سنة ست وثمانين والف

رسالة القيان
لابي عثمان عمرو بن بحر الجاهلي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

من أبي موسى بن اسحاق بن موسى ، ومحمد بن خالد خذار خذاه ، وعبد الله
ابن أيوب بن أبي سمير ، ومحمد بن حماد كاتب راشد ، والحسن بن ابراهيم بن
رباح ، وأبي الخيار ، وأبي الرنال ، وخاقان بن حامد ، وعبد الله بن الهيثم بن
خالد اليزيدي المعروف بمشرطة ، وعلاك بن الحسن ، ومحمد بن هارون كبه ،
وإخوانهم المتمتعين بالنعمة ، والمؤثرين للذة ، المتمتعين بالقيان وبالاخوان ،
المعدين لوظائف الأطعمة ، وصنوف الأشربة ، والراغبين بأنفسهم عن قبول
شيء من الناس ، أصحاب الستر والستارات ، والسرور والمروءات * الى أهل
الجهالة والجفاء وغلظ الطبع وفساد الحس

سلام على من وفق لرشده ، وآثر حظ نفسه ، وعرف قدر النعمة ، فانه
لا يشكر النعمة من لم يعرفها ويعرف قدرها ، ولا يزداد فيها من لم يشكرها ،
ولا بقاء لها عند من أساء حملها . وقد كان يقال حمل الغني أشد من حمل الفقير ،
ومؤنة الشكر أضعف من مشقة الصبر ^(١) جعلنا الله وإياكم من الشاكرين

(أما بعد) فانه ليس كل صامت عن حجته مبطلا في اعتقاده ، ولا كل
ناطق بها لا برهان له محققاً في انتحاله . والحاكم العادل من لم يجعل بفصل القضاء ،
دون استقصاء حجج الخصماء . ودون أن يجول القول فيمن حضر من
الخصماء والاستماع منه . وأن تبلغ الحجة مداها من البيان ، ويشرك القاضي

(١) يشير الى ما ورد في الحديث وأقوال الأئمة من المقارنة بين الغني الشاكر والفقير الصابر
انظر كتاب (عدة الصابرين) لابن القيم ص ١١٦ وما بعدها

الخصمين في فهم ما اختصا فيه ، حتى لا يكون بظاهر ما يقع عليه من حكمه أعلم منه بباطنه ولا بعلائية ، ما يفالج الخصام فيه أطيب منه لسه . ولذلك استعمل أهل الحزم والروية من القضاة طول الصمت ، وانعام التفهم والتمهل ، ليكون الاختيار بعد الاختبار ، والحكم بعد اليقين . وقد كنا ممسكين عن القول بمحبتنا فيما تضمنه كتابنا هذا اقتصاراً على أن الحق مكيف^(١) بظهوره ، مبين عن نفسه ، مستغن عن أن يستدل عليه بغيره . إذ كان انما يستدل بظاهر على باطن وعلى الجوهر بالعرض ، ولا يحتاج أن يستدل بباطن على ظاهر . وعلمنا أن خصماءنا - وان موهوا وزخرفوا - غير بالغين للفالج والغلبة عند ذوى العدل دون الاستماع منا ، وان كل دعوى لا يفالج صاحبها بمنزلة ما لم تكن بل هي على المدعي كَلٌّ وكرب ، حتى تؤديه الى مسرة النجح أو راحة اليأس . الى ان تفاقم الامر ، وعيل الصبر ، وانتهى الينا عيب عصابة لو أمسكنا عن الاجابة عنها ، والاحتجاج فيها ، علما بان من شأن الحاسد تهجين ما يحسد عليه ، ومن خلق المحروم [تقبيح] ما حرم وتصغيره والطعن على اهله ، كان لنا في الامساك سعة . فان الحسد عقوبة موحبة للحاسد بما يناله منه وبشئنه من عصيان ربه واستصغار نعمته ، والسخط على القدرة ، مع الكرب اللازم والحزن الدائم والتنفس صعبا والتشاغل بما لا يدرك ولا يحصى . وان الذي يشكر فعلى امر محدود يكون شكره ، والذي يحسد فعلى ما لاحد له يكون حسده . فحسده متسع بقدر تغير اتساع ما حسد عليه . لانا خفنا ان يظن جاهل ان امساكنا عن الاجابة اقرار بصدق العضية ، وان اغضاءنا عن ذي الغيبة عجز عن دفعها . فوضعنا في كتابنا هذا حججاً على من عابنا بملك القيان ، وسبنا بمنادمة الاخوان ، ونقم علينا اظهار النعم والحديث بها . ورجونا النصر اذ قد بُدِنا ، والبادي اظلم ، وكاتب الحق

(١) لعله « متكفل » أو « مكثف »

فصيح ، ويروى ولسان الحق فصيح ، ونفس المجروح لا يقام لها ، وصولة الحليم المتأنى لا بقاء بعدها . فبينما الحجّة في اطراح الفيرة في غير محرّم ولا ريبة ، ثم وصفنا فضل النعمة علينا ، ونقضنا اقوال خصائنا ، بقول موجز جامع لما قصدنا . ففهما اطيننا فيه فللشرح والافهام ومهما ادججنا وطوينا فليخف حمله . واعتمدنا على ان المطول يقصر ، والمالمخص يختصر ، والمطوي ينشر ، والاصول تتفرع . وبالله الكفاية والعون

ان الفروع لا محالة راجعة الى اصولها ، والأعجاز لاحقة بصدورها ، والموالي تبع لاولياتها ، وأمر العالم ممزوجة بالمشاكلة ، ومتفردة بالمضادة ، وبعضها علة لبعض كالغيث علة السحاب ، والسحاب علة الماء والرطوبة . وكالحب علة الزرع ، والزرع علة الحب . والدجاجة علتها البيضة ، والبيضة علتها الدجاجة . والانسان علتة الانسان ، والفلك وجميع ما تحويه اقطار الارض وكل ما تقله اكنافها للانسان خول ومتاع الى حين . الا ان اقرب ما سخر له من روحه ، والطفه عند نفسه الانثى : فانها خلقت له ليسكن اليها ، وجعلت بينه وبينها مودة ورحمة . ووجب ان يكون كذلك ، وان يكون احق بها وأولى من سائر ما خول ، اذ كانت مخلوقة منه وبعضها له وجزءا من اجزائه ، وكان بعض الشيء أشكل ببعض وأقرب به قربا من بعضه ببعض غيره . فالنساء حرث الرجال كما أن النبات رزق لما جعل رزقا له من الحيوان ، ولولا الحنة والبلوى في تحريم ما حرم وتحليل ما أحل وتخليص الموالي من شبهات الاشتراك فيها وحصول المواريث في أيدي الاعقاب لم يكن واحد أحق بواحدة منهم من الآخر ، كما ليس بعض السوام أحق برعي مواقع السحاب من بعض ، ولكان الامر كما قالت المجوس ان للرجل^(١) الاقرب فالاقرب اليه رحما وسببا منهم . الا أن الغرض وقع بالامتحان فخص المطلق كما فعل بالزرع

(١) في الاصل « الرجال »

فانه مرعى لولد آدم ولسائر الحيوان الا ما منع منه التحريم ، وكل شيء لم يوجد محرماً في كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فباح مطلق ، وليس على استقباح الناس واستحسانهم قياس ما لم نخرج من التحريم دليلاً على حسنه ، وداعياً الى حلاله . ولم نعلم للغيرة في غير الحرام وجهاً ، ولولا وقوع التحريم لزالَت الغيرة ولزمنا من أحق بالنساء ^(١) فانه كان يقال ليس أحد أولى بهن من احد وانما هن بمنزلة المشام والتفاح الذي يتهداه الناس بينهم ، ولذلك اقتصر من العدة على الواحدة منهن وفرق الباقي منهن على المقربين . غير أنه لما عزم الفريضة بالفرق بين الحلال والحرام اقتصر المؤمنون على الحد المضروب لهم ، ورخصوه فيما تجاوزه . فلم يكن بين رجال العرب ونسائها حجاب ، ولا كانوا يرضون مع سقوط الحجاب بنظرة الفلانة ولا لحظة الخلسة ، دون أن يجتمعوا على الحديث والمسامرة ، ويزدوجوا في المناسمة والمشافعة ، ويسمى المولع بذلك من الرجال الزير المشتق من الزيارة ، وكل ذلك بأعين الأولياء ، وحضور الأزواج : لا ينكرون ما ليس بمنكر اذا أمنوا المنكر ، حتى لقد حصل في صدر اخي بثينة من جميل ما حصل من استعظام الموانسة ، وخروج العنبر عن المخالطة ، وشكاً ذلك الى زوجها وهزه ما حشمه ، فكنا لجميل عند انيائه بثينة ليقْتلاه فلما دنا حديثه وحديثها سمعاه يقول ممتحننا لها : هل لك فيما يكون بين الرجال والنساء فيما يشفي غليل العشق ويطفىء نائرة الشوق ؟ قالت : لا . قال : ولم ؟ قالت ان الحب اذا نكح فسد . فأخرج سيفاً قد كان اخفاه تحت ثوبه فقال : أما والله لو أنعمت لي للملأته منك . فلما سمعنا ذلك وثقنا بغيبه وركنا الى عفاة وانصرفا عن قتله ، وأباحاه النظر والمحاذنة . فلم يزل الرجال يتحدثون مع النساء في الجاهلية والاسلام حتى ضرب الحجاب على نساء النبي صلى الله عليه وسلم خاصة .

وتلك المحادثة كانت سبب الوصلة بين جميل وبثينة ، وعفراء وعروة ، وكثير وعزة ، وقيس وليلى ، وأسماء ومرقس ، وعبد الله بن عجلان وهند ، ثم كانت الشرائف من النساء يقعدن للرجال للحديث ولم يكن النظر من بعضهم الى بعض عاراً في الجاهلية ولا حراماً في الاسلام . وكانت ضيافة من بني عامر بن قرط بن عامر بن صعصعة تحت عبد الله بن جدعان زمانا لاتلد فأرسل اليها هشام بن المغيرة المخزومي : ما تصنعين بهذا الشيخ الكبير الذي لا يولد له ؟ قولي له يطلقك . فقالت لعبد الله ذلك فقال لها : انى أخاف عليك أن تتزوجي هشام بن المغيرة . قالت لا أتزوجه . قال فأن فعلت فعليك مائة من الأبل تنحرينها في الجزورة ^(١) ، وتنسجين لي ثوبا يقطع ما بين الاخشبين ، والطواف عريانة . قالت لا أطيقه . وأرسلت الى هشام فأخبرته الخبر فأرسل اليها : ما يسر ماسألك ، وما يلوك وأنا أيسر قريش في المال ونسائي أكثر نساء رجل من قريش ، ^(٢) وأنت أجمل النساء فلا تأبى عليه . فقالت لابن جدعان طلقني فأن تزوجت هشاماً فعلي ما قلت . فطلقها بعد استيثاقه منها . فتزوجها هشام ونحر عنها مائة من الجزور وجمع نساءه فنسجن ثوبا يسم ما بين الاخشبين ، ثم طافت بالبيت عريانة . فقال المطلب بن أبي وداعة لقد أبصرتها وهي عريانة تطوف بالبيت وانى للغلام أتبعها اذا أدبرت وأستقبلها اذا أقبلت فما رأيت شيئاً مما خلق الله أحسن منها واضعة يدها على ركبها وهي تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحله
كم ناظر فيه فما أبله أجنى مثل القعب بادٍ ظله
قال ثم ان النساء الى اليوم من بنات الخلفاء وأمهاتهم فمن دونهن يطفن بالبيت

(١) في الاصل « الجزورة » (٢) وفي الاصابة لابن حجر (٤ : ٣٥٣) : وأما طوافك بالبيت عريانة فأنا أسأل قريشا أن يخلوا لك البيت ساعة

مكشفات الوجوه ونحو ذلك لا يكمل حجب الابه

وأعرس عمر بن الخطاب رضي الله عنه بماتكة ابنة زيد بن نفيل وكانت قبله عند عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنه فمات عنها بعد أن اشترط عليها ألا تزوج بعده أبداً على أن ينحلها قطعة من ماله سوى الأثر فخطبها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأفتاها بأن يعطيها مثل ذلك من المال فتتصدق به عن عبد الله ابن أبي بكر رضي الله عنه ، فقالت في مريثته :

فأقسمت لا تنفك عيني سخينة عليك ولا ينفك جلدي اغبرا

فلما ابنتى بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه أولم ودعا المهاجرين والانصار فلما دخل علي بن ابي طالب رضي الله عنه قصد لبيت حجتها فرفع السجف ونظر اليها فقال :

« فأقسمت لا تنفك عيني قريرة عليك ولا ينفك جلدي اصفرا »

فحجبت فاطرت وساء عمر رضي الله عنه ما رأى من خجلها ونشوزها عند تعيير علي اياها بنقض ما فارقت عليه زوجها فقال : يا أبا الحسن رحمك الله ما اردت الى هذا ؟ فقال حاجة في نفسي قضيتها

هذا وانتم ترون أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان أغبر الناس وان النبي صلى الله عليه وسلم قال له اني رأيت قصرا في الجنة فسألت لمن هذا القصر قيل لعمر بن الخطاب فلم ينعني من دخوله الا معرفتي بغيرتك . فقال عمر رضي الله عنه وعليك يغار يا نبي الله ؟ فلو كان النظر والحديث والدعابة يغار منها لكان عمر رضي الله عنه المقدم في انكاره لتقدمه في شدة الغيرة ، ولو كان حراما لمنع منه اذ لا شك في زهده وورعه وعلمه وتفقهه

وكان الحسن بن علي عليه السلام تزوج حفصة ابنة عبد الرحمن وكان المنذر بن الزبير يهواها ، فبلغ الحسن عنها شيء فطلقها ، فخطبها المنذر فأبت .

أن تزوجه وقالت شهرني ، وخطبها عاصم بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فتزوجها ، فرقى اليه المنذر عنها شيئاً فطلقها وخطبها المنذر ، فقيل لها تزوجيه ليعلم الناس انه كان يعضك ، فتزوجته فعلم الناس انه كذب عليها . فقال الحسن لعاصم : استأذن عليها المنذر فندخل اليها ونتحدث عندها . فاستأذنه فشاور اخاه عبد الله بن الزبير فقال دعهما يدخلا . فدخلتا فكانت الى عاصم أكثر نظراً منها الى الحسن ، وكان أبسط للحديث . فقال الحسن للمنذر : خذ يد امرأتك فأخذ بيدها وقام الحسن وعاصم فخرجا وكان الحسن يهواها وانما طلقها لما رقى اليه المنذر . وقال الحسن يوماً لابن أبي عتيق هل لك في العتيق فخرجا فعبد الحسن الى منزل حفصة فدخل اليها فتحدثا طويلاً ثم خرج ثم قال لابن أبي عتيق هل لك في العتيق فقال نعم فنزل بمنزل حفصة ودخل . فقال مرة اخرى : هل لك في العتيق ؟ فقال يا ابن أم ألا تقول هل لك في حفصة ؟ وكان الحسن في ذلك العصر أفضل أهل دهره ، فلو كان محادثة النساء والنظر اليهن حراماً وعاراً لم يفعله ولم يأذن فيه المنذر بن الزبير ، ولم يشربه عبد الله بن الزبير .

وهذا الحديث وما قبله يبطلان ما روت الحشوية من أن النظر الاول حلال . والثاني حرام لانه لا يكون محادثة الا ومعها مالا يحصى عدده من النظر الا أن يكون عنى بالنظرة المحرمة ، والنظر الى الشعر والمجاسد وما تخفيه الجلابيب مما يحل للزوج والولي ويحرم على غيرها .

ودعا مصعب بن الزبير الشعبي وهو في قبة له بمجالة بوشي معه امرأته فيها فقال يا شعبي من معي في هذه القبة ؟ فقال لا أعلم أصلح الله الأمير . فرفع السجف فإذا هو بمائشة ابنة طلحة والشعبي فقيه أهل العراق وعالمهم ولم يكن يستحل أن ينظر ان كان النظر حراما .

ورأى معاوية كاتباً له يكلم جارية لامرأته فاختمت ابنة قرظة في بعض طرق

داره ثم خطب ذلك الكاتب تلك الجارية فزوجها منه فدخل معاوية الى فاختة وهي متحشدة في بقية عطر لعرس جاريتها فقال : هوني عليك يا ابنة قرظة فاني أحسب الابتلاء قد كان منذ حين . ومعاوية أحد الأئمة فلما لم يقع عنده ما رأى من الكلام موقع يقين ، واتما حل محل ظن وحسبان ، لم يقض به ولم يوجب له ولو أوجبه لحد عليه . فكان معاوية يؤتى بالجارية فيجردها من ثيابها بحضرة جلسائه ويضع القضييب على ركبها ثم يقول انه لمتاع لو وجد متاعاً ثم يقول لصعصعة بن صوحان خذها لبعض ولدك فانها لا تحل ليزيد بعد أن فعلت بها ما فعلت . ولم يكن يعدم من الخليفة ومن بمنزله في القدرة والثأني أن يقف على رأسه جارية تنذب عنه وتروحه وتعاطيه اخرى في مجلس عام بحضرة الرجال

فمن ذلك حديث الوصيفة التي اطاعت في كتاب عبد الملك بن مروان الى الحجاج وكان يسره . فلما فشا ما فيه رجع على الحجاج باللوم وتمثل بهذا :

ألم تر أن وشاة الرجال لا يتركون أديماً صحيحاً
فلا تفش سرك الا اليك فان لكل نصيح نصيحاً

ثم نظر فوجد الجارية كانت تقرأ فنمت عليه

ومن ذلك حديثه حين نعت فقال للفرزدق وجريروالاخطل : من وصف ناعسا بشعر وتمثل نصيباً فيه ويحسن التمثيل فهذه الوصيفة له . فقال الفرزدق :

رماه الكرى في الرأس حتى كأنه أميم جلاميد تركن به وقرا

فقال : شدختني ويلك يا فرزدق ؟ فقال جرير :

رماه الكرى في الرأس حتى كأنه يرى في سواد الليل فسله سفراً (١)

فقال : ويلك تركتني مجنوناً . ثم قال يا أخطل فقل . فقال :

رماه الكرى في الرأس حتى كأنه نديم تروى بين ندمانه خمرأ

(١) كذا الاصل وليس البيت في ديوان جرير

فقال : أحسنت ، خذ اليك الجارية

ثم لم يزل للملوك والاشراف اماء يختلفن في الحوائج ، ويدخلن في الدواوين ونساء يجلسن للناس ، مثل خالصة جارية الخيزران ، وعتبة جارية ربطة ابنة أبي العباس ، وسكر وتركية جارياتي أم جعفر ، ودقاق جارية العباسية ، وظلوم وقسطنطينية جارياتي أم حبيب ، وامرأة هارون بن سعبوبة ، وحمدونة أمة نصر ابن السندي بن شاهك . ثم كن يبرزن للناس أحسن ما كن وأشبه ما يترين به ، فما أنكر ذلك منك ولا عابه عائب . ولقد نظر المأمون الى سكر فقال : أحررة أنت أم مملوكة ؟ قالت لا أدري اذا غضبت علي ام جعفر قالت أنت مملوكة واذا رضيت قالت أنت حرة . قال فاكتبني اليها الساعة فأسأليها عن ذلك . فكتبت كتاباً وصلته بجناح طائر من الهوى^(١) كان معها أرسلته تعلم ام جعفر ذلك ، فعلمت أم جعفر ما أراد فكتبت اليها : أنت حرة . فتزوجها على عشرة آلاف درهم ثم خلا بها من ساعتها فواقعها وخلق سبيلها وأمر بدفع المال اليها

والدليل على أن النظر الى النساء كاهن ليس بمحرام أن المرأة المغنية تبرز للرجال فلا تحتشم من ذلك فلو كان حراماً وهي شابة لم يحل اذا غنت ولكنه أمر أفرط فيه المتعدون حد الغيرة الى سوء الخلق ، وضيق العطن^(٢) فصار عندهم كالخلق الواجب

وكذلك كانوا لا يرون بأساً أن تنتقل المرأة الى عدة أزواج لا ينقلها عن ذلك الاموت مادام الرجال يريدونها ، وهم اليوم يكرهون هذا ويستسمجونه في بعض ، ويمافون المرأة الحرة اذا فارقت زوجاً واحداً ، ويلزمون من خطبها العار ، ويلحقون به اللوم ، ويعيرونها بذلك . ويتحظون الامة وقد تداوها من لا يحصى

(١) كذا الاصل (٢) في الاصل « وضيق الفطنة »

عدده من الموالي . فمن حسن هذا في الاماء وقبحه في الخرائر ؟ ولم لم يغاروا في
الاماء وهن امهات الاولاد وحظايا الملوك وغاروا على الخرائر ؟

ألا ترى أن الغيرة اذا جاوزت ما حرم الله فهو باطل ، وأنها بالنساء لضعفهن
أولع حتى يغرن على الظن والحلم في النوم ، وتغار المرأة على أبيها وتماذى امرأته
وسريته . ولم يزل القيان عند الملوك من العرب والعجم على وجه الدهر : وكانت
فارس تعد الغناء أدبا ، والروم فلسفة . وكانت في الجاهلية الجرادتان لعبد الله بن
جندب . وكان لعبد الله بن جعفر الطيار جوار يتغنين وغلالم يقال له بديع يتغني
فعابه بذلك الحكيم بن مروان فقال : وما علي أن آخذ الجيد من أشعار العرب
وألقيه الى الجواري فيترنن به وينشدنه بمحلوقةن ونغمتهن

وسمع يزيد بن معاوية الغناء . واتخذ يزيد بن عبد الملك حباة وسلامة
وأدخل الرجال عليهما للسمع ، فقال الشاعر في حباة :

إذا ما حن مزهرها اليها وحنّت دونه أذن الكرام
واصغت نحوه الأذان حتى كأنهم وما ناموا نيام

وقال في سلامة :

ألم ترها والله يكفيك شرها إذا طربت في صوتها كيف تصنع
ترد نظام القول حتى ترده الى صلصل من حلقها يترجع
وكان يسمع فإذا طرب شق برده ثم يقول : أطير ! فتقول حباة : لا تظر
فإن بنا اليك حاجة

ثم كان الوليد بن يزيد المتقدم في اللهو والغزل . والملوك بعد ذلك يسلكون
على هذا المنهاج وعلى هذا السبيل الاول
وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قبل أن تناله الخلافة يتغنى فما يعرف
من غنائه :

أما صاحبي نزر سعاداً لقرب مزارها ودعا البعادا

وله :

عاود القلبُ سعاداً قفلي^(١) الطرفُ السهادا

ولا نرى بالغناء بأساً اذ كان أصله شعراً مكسوّاً نفماً فما كان منه صدقاً فحسن ، وما كان منه كذباً فقبیح وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « ان من الشعر لحكمة » وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه « الشعر كلام ، فحسنه حسن وقبيحه قبيح » ولا نرى وزن الشعر ازال الكلام عن جهته ، فقد يوجد ولا يضره ذلك ، ولا يزيل منزلته من الحكمة ، فاذا وجب أن الكلام غير محرم فان وزنه وتقفيته لا يوجبان تحريمه لعله من العمل ، وان الترجيع له أيضاً لا يخرج به الى حرام ، وان وزن الشعر وكتاب العروض من كتاب الموسيقى وهو من كتاب حد النفوس لا تحده اللسان بحد مقنع ، وقد يعرف بالهاجس كما يعرف بالاحصاء والوزن ، فلا وجه لتحريمه ، ولا أصل لذلك في كتاب الله تعالى ، ولا سنة نبويه عليه الصلاة والسلام

فان كان انما يحرم لانه يلهي عن ذكر الله فقد نجد كثيراً من الاحاديث والمطاعم والمشارب والنظر الى الجنان والرياحين ، واقتناص الصيد ، والتشاغل بالجماع وسائر اللذات ، تصد وتلهي عن ذكر الله تعالى ونعلم أن قطع الدهر بذكر الله ممن أمكنه ذلك أفضل . الا أنه اذا أدى الرجل الفرض فهذه الامور كلها له مباحة ، واذا قصر عنه يلزمه المأثم ، ولو سلم من الله عن ذكر الله أحد لسلم الانبياء عليهم السلام . هذا سليمان بن داود عليه السلام أهله عرض الخيل عن الصلاة حتى غابت الشمس فعرقها وقطع رقابها

(١) في الاصل « فعلا »

وبعد فإن الرقيق تجارة من التجارات: تقع عليه المساومة والمشاركة بالثمن، ويحتاج البائع والمبتاع الى أن ينتقيا ^(١) العلق ويتأملاه تأملا يناسب فيه خيار الرؤية المشترط في جميع البياعات، وإن كان لا يعرف مبالغه بكيل ولا وزن ولا عدد ولا مساحة فقد يعرف بالحسن والقبح، ولا يقف على ذلك أيضا إلا الثاقب في نظره، الماهر في بصره، الطَّبيب بصناعته. فإن أمر الحسن أدق وأرق من أن يدركه كل من أبصره. وكذلك الأمور الوهمية لا يقضي عليها بشهادة ابصار الاعين، ولو قضي عليها بها كان كل من رآها يقضي، حتى النعم والخمير يحكم فيها لكل بصير العين يكون فيها شاهدا وبصيرا للقلب ومؤديا الى العقل، ثم يقع الحكم من العقل عليها

وأنا مبين لك الحسن. هو التمام والاعتدال، ولست أعني بالتمام تجاوز مقدار الاعتدال كالزيادة في طول القامة، وكدقة الجسم، أو عظم الجارحة من الجوارح، أو سعة العين أو الفم مما يتجاوز مثله من الناس المعتدلين في الخلق، فإن هذه الزيادة متى كانت فهي نقصان من الحسن وإن عدت زيادة في الجسم. والحدود حاصرة لأمور العالم، ومحيطة بمقاديرها الموقوفة لها، فكل شيء خرج عن الحد في خلق أو خلق - حتى في الدين والحكمة اللذين هما أفضل الأمور - فهو قبيح مذموم

وأما الاعتدال فهو وزن الشيء لا الكمية، والكون كون الارض لا استوائها ووزن النفوس في أشباه أقسامها، ووزن خلقة الانسان اعتدال محاسنها وألا يفوت شيء منها شيئا، كالعين الواسعة لصاحب الأنف الصغير اللفطس، والأنف العظيم لصاحب العين الضيقة، والذقن الناقص والرأس الضخم والوجه الفخم لصاحب البدن المجدع النضو، والظهر الطويل لصاحب الفخذين القصيرين،

(٢) في الاصل « ينشأ »

والظهر القصير لصاحب الفخذين الطويلين . وكسعة الجبين بأكثر من مقدار أسفل الوجه

ثم هذا أيضا وزن الابنية ، وأصناف الفرش والوشى واللباس ، ووزن القنوات التي تجري فيها المياه ، وإنما نعى بالوزن الاستواء في الخط والتركيب . فلا بد لما ^(١) لا يمنع الناظر من النظر الى الزرع والفرش والبنفسج في خضرته والاستنشاق من روائحها ، ويسمى ذلك كله له حلا ما لم يعد ^(٢) له يدا فإذا مد يدا الى مثقال حبة من خردل بغير حقها فعل ما لا يحل ، وأكل ما يحرم عليه . وكذلك مكلمة القيان ، ومفاكهتهن ، ومغازلتهن ، ومصافحتهن للسلام ، ووضع اليد عليهن للتقليب . والنظر حلال ما لم يشب ذلك ما يحرم . وقد استثنى الله تبارك وتعالى اللطم فقال « والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللطم ، ان ربك واسع المغفرة » قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه - وسئل عن تأويل هذه الآية فقال - : اذا دنا الرجل من المرأة فان تقدم ففاحشة وأن تأخر فلم . وقال غيره من الصحابة : القبلة واللمس . وقال آخرون الا تيان فيما دون الفرج ، وكذلك قال الاعرابي - حين سئل عما نال من عشيقته فقال - : ما أقرب أحل الله مما حرم الله !

فان قال قائل فيما روى من الحديث « فرقوا بين أنفاس الرجال والنساء » وقال « لا يخل رجل بامرأة في بيت وان قيل حموها ، ألا ان حموها الموت » ان في الجمع بين الرجال والقيان مادعا الى الفسق والارتباط والعشق مع ما ينزل بصاحبه من الغلظة التي تضطر الى الفجور وتحمل على الفاحشة ، وان أكثر من يحضر منازل القيان انما يحضر لذلك لا لسماع ولا ابتياع

قلنا ان الاحكام انما تقع على ظاهر الامور ولم يكلف الله العباد الحكم على

(١) كذا الاصل (٢) في الاصل « كله له حل ما يعد »

الباطن والعمل على النيات فيقضى للرجل بالاسلام بما يظهر منه ولعله ملحد فيه ،
ويقضى أنه لا يبه ولعله لم يلبه الاب الذي ادعى اليه قط الا أنه مولود على
فراشه مشهور بالانتماء اليه ، ولو كلف من يشهد لرجل بواحد من هذين المعنيين
على الحقيقة لم تقم عليه شهادة . ومن يحضر مجالسنا لا يظهر اسباً مما ينسبونه
اليه ولو أظهر ثم أغضينا له عليه لم يلحقنا في ذلك اثم

والحسب والنسب الذي بلغ به القيان الاثمان الرغبة انما هو لهواء ،
ولو اشترى على مثل شرى الرقيق لم تجاوز الواحدة منهم ثمن الراس
الساذج ، فاكثر من بالغ في ثمن جارية فبالعشق بالغ فيها ، ولعله قد كان
ينوي في أمرها الريبة ويجد هذا أسهل سبيلا الى اشفاء غليله ، ثم تعذر ذلك عليه
فصار الى الحلال وان لم ينوه ، وتعرف فضله فباع المتاع ، وحل العقد ، وأقل
ظهره بالعبية ، حتى ابتاع الجارية . ولا يعمل عملاً ينتج خيراً غير اغرابه بالقيان ،
وقيادته عليهم . فانه لا يتحمل الامر الا وغيته فيهن العشق ، فيعوق عن ذلك
ضبط الموالى ، ومراعاة الرقباء ، وشدة الحجاب ، فيضطّر العاشق الى الشراء ، ويحل
به الفرح ويكون الشيطان المدحور

والعشق داء لا يملك دفعه ، كما لا يستطيع دفع عوارض الادواء إلا بالحمية ،
ولا يكاد ينتفع بالحمية مع ما يولد الاغذية ويزيد في الطبائع بالازدياد في الطعم ،
ولو أمكن أحداً أن يحتّمى من كل ضرر ، ويقف عن كل غذاء ، للزم ذلك المتطبيب
في آفات صحته ، ونحل جسمه ، وضوى لحه ، حتى يؤمر بالتخليط ، ويشار عليه
بالعناية في الطيبات . ولو ملك أيضاً صرف الاغذية ، واحترس بالحمية ، لم يملك
ضرر تغيير الهواء ، ولا اختلاف الماء

وأنا واصف لك العشق لتعرف حده : هو داء يصيب الروح ويشتمل على
الجسم بالمجاورة ، كما ينال الروح الضعف من البطش . والوهن في المرء ينهكه . وداء

العشق وعمومه في جميع البدن بحسب منزلة القلب من أعضاء الجسم ، وصعوبة دوائه يأتي من قبل اختلاف علله ، وانه يتركب من وجوه شتى كالحي التي تعرض مركبة من البرد والبلغم فمن قصد لعلاج أحد الخلطين كان ناقصا من دوائه زائدا في داء الخلط الآخر ، وعلى حسب قوة أركانه يكون نبوته وابطاؤه في الانحلال . فالعشق يتركب من الحب والهوى والمشاكاة والالف . وله ابتداء في المصاعدة ، ووقوف على غاية ، وهبوط في التواليد إلى غاية الانحلال ووقت الملل

والحب اسم واقع على المعنى الذي رسم به لا يعتبر له غيره ، لانه قد يقال المرء يحب الله وان الله عز وجل يحب المؤمن . وان الرجل يحب ولده ، والولد يحب صديقه وبلده وقومه ويحب على أي جهة يريد ولا يسمى ذلك عشقا . فنعلم حينئذ أن اسم الحب لا يكتفى به في معنى العشق حتى تضاف اليه العمل الاخرى الا أنه ابتداء العشق ثم يتبعه الهوى فربما وافق الحق والاختبار ، وربما عدل عنهما ، وهذه سبيل الهوى في الاديان والبلدان وسائر الامور ، ولا يميل صاحبه عن حجته واختياره فيما يهوى ، ولذلك قيل : عين الهوى لا تصدق ! وقيل : حبك الشيء يعني ويصم ، يتخذون أديانهم أربابا لاهوائهم ، وذلك أن العاشق كثيرا ما يعشق غير النهاية في الجمال ، ولا الغاية في الكمال ، ولا الموصوف بالبراعة والرشاقة . ثم اذا مثل عن حجته في ذلك لم تقم له حجة . ثم قد يجتمع الحب والهوى ، ولا يسميان عشقا فيكون ذلك في الولد والصديق والبلد والصنف من اللباس والفرش والدواب فلم ير أحد منهم يسقم بدنه ولا يتلف روحه من حب ولده ولا بلده وان كان قد يصيبه عند الفراق لوعة واحتراق . وقد رأينا وبلغنا عن كثير ممن قد تلف وطال جهده وضناه بداء العشق فعلم انه اذا أضيف الى الحب والهوى المشاكاة - أعني مشاكاة الطبيعة -

أى حب الرجال النساء وحب النساء الرجال المركب في جميع الفحول والالانث من الحيوان صار ذلك عشقا صحيحا . وان كان ذلك عشقا من ذكر لذكر فليس الا مشتقا من هذه الشهوة والا لم يسم عشقا اذا فارقت الشهوة . (١) ثم لم يره ليكون مستحكما عند أول لقاء حتى يعقد لذلك الالف ، وتفرسه المواظبة في القلب ، فينبت كما تنبت الحبة في الارض حتى يستحكم ويشد ويشمر وربما صار لها كالجذع السحوق والعمود الصلب الشديد ، وربما انعقف فصار فيه بوار الأصل ، فاذا اشتمل على هذه العمل صار عشقا تاما . ثم صارت قلة العيان تزيد فيه ، وتوقد ناره ، والا تقطاع يسعره ، حتى يدخل العقل ، وينهك البدن ، ويشغل القلب عن كل نافعة ، ويكون خيال المعشوق نصب عين العاشق ، والغالب على فكرته ، والمخاطر في كل حالة على قلبه

واذا طال العهد واستمرت الأيام نقص على الفرقة واضمححل على المطاولة ، وان كانت كلومه وندوبه لا تكاد تمفو آثارها ولا تدرس رسومها ، فكذلك الظفر بالمعشوق يسرع في حل عشقه . والعلة في ذلك أن بعض الناس أسرع الى العشق من بعض لاختلاف طبائع القلوب في الرقة والقسوة ، وسرعة الالف وإبطائه ، وقوة الشهوة وضعفها . فما يظهر المعشوق عشقه الاعداء بدائه ، ونكت في صدره ، وشغف فؤاده . وذلك من المشاكلة واجابة بعض الطبائع بعضها ، وتوقان بعض الانفس الى بعض ، وتقارب الارواح ، كالنائم يرى آخرينام ولا نوم به فينمى ، وكالمتئائب يراه من لا تتأوب به فيفعل مثل فعله قسرا من الطبيعة ، وقاما يكون عشق بين اثنين يستويان فيه الا عن مناسبة بينهما في الشبه : في الخلق والخلق وفي الظرف أو في الهوى أو الطباع . ولذلك ماترى الحسن يعشق القبيح ، والقبيح يعشق الحسن ، ويختار المختار الاقبح على الأحسن ، وليس يرى

الاختيار في غير ذلك فيتوهم الغلط عليه لـكنه لتعارف الارواح وازدواج القلوب
ومن الآفة عشق القيان على كثرة فضائلهن وسكون النفوس اليهن ولأنهن
يجمعن للانسان من اللذات ما لا يجتمع في شيء على وجه الارض، واللذات كلها انما
تكون بالحواس، والمأكل والمشروب حظ حاسة الذوق ولا يشركها فيه غيرها،
فلو أكل الانسان المسك الذي هو حظ الأنف وجده بشعا واستقذره، اذ كان
دما جامدا، ولو تنسم ارواح الاطعمة غير الطيبة كالقواكه وما أشبهها عند انقطاع
الشهوة أو ألح بالنظر الى شيء من ذلك عاد ضررا، ولو أبلى سمعه كل طيب وطيب
لم يجد له لذة، فاذا جاء باب القيان اشترك فيه ثلاث من الحواس وصار القلب لها
رابعا: فللعين النظر الى القينة الحسناء والمشهية اذ كان الحنق والجمال لا يكادان
يجتمعان لمستمع ومرتع^(١)، وللسمع منها حظ الذي لامؤنة عليه ولا تطرب آله
الا اليه، وللمس فيها الشهوة والحنين الى الباه. والحواس كلها رواد للقلب، وشهود
عنده، واذا رفعت القينة عقيرة حلقها تغني حدق اليها الطرف، وأصغى نحوها
السمع، والقلب القلب اليها الملك^(٢)، فاستبق السمع والبصر، أيهما يؤدي
للقلب ما أفاد منها قبل صاحبه، فيتوافيا عند حبة القلب فيفرغان ما وعياه فيتولد
منه مع السرور حاسة اللمس فيجتمع له في وقت واحد ثلاث لذات لا يجتمع له في
شيء قط، ولم تؤد اليه الحواس مثلها. فيكون في مجالسته للقينة أعظم الفتنة لأنه
روى في الاثر « اياكم والنظرة فانها تزرع في القلب الشهوة وكفى بها لصاحبها
فتنة » فكيف بالنظر والشهوة اذا صاحبهما السماع وتكافئتهما المغازلة
ان القينة لا تكاد تخلص في عشقها، ولا تناصح في ودها، لانها مكنسبة
ومجبولة على نصب الحباله والشرك للمتربطين ليقعوا في أنشوطتها^(٣).
فاذا شاهدها المشاهد رامته باللحظ، وداعبته بالتبسم، وغازلته في أشعار الغناء،

(١) كذا الاصل وفيه تحريف (٢) في الاصل « لفتحوها في نشوطتها

ولهجت باقتراحاته ، ونشطت للشرب ، وأظهرت الشوق الى طول مكثه ،
والصبابة لسرعة عودته ، والحزن لفراقه . فاذا أحست بأن سحرها قد قلب فيه ،
وانه قد تغفل^(١) في الشرك ، تزيدت فيما كانت قد شرعت فيه ، وأوهمته أن الذي
بها أكثر مما به منها . ثم كاتبنه تشكو اليه هواها ، وتقسم له أنها مدت الدواة بدمعها
وبلت السحاء بريقها ، وأنه سبغها وشجوها في فكرتها وضميرها في ليلها ونهارها .
وأنها لا تريد سواه ، ولا تؤثر أحدا على هواه ، ولا تنوى انحرافا عنه ، ولا تريد
لماله ، بل لنفسه . ثم جعلت الكتاب في سدس طومار ، وختمته بزعفران ، وشدته
بقطعه زبر ، وأظهرت سره عند مواليها ليكون المغرور أوثق بها ، وألحت في
اقتضاء جوابه ، فان أجيبته عنه ادعت أنها قد صيرت الجواب سلوتها ، وأقامت
الكتاب مقام رؤيته ، وأنشدت :

وصحيفة تحكى الضمير ر مليحة نغماتها
جاءت وقد فرح الفؤاد د لطول ما استبطأتها
فضحكت حين رأيته وبكيت حين قرأتها
عيني رأيت ما أنكرت فتبادرت عبراتها
أظلمت نفسي في يد يك حياتها ووفاتها

ثم تغنت حينئذ بـ

ان كتاب الحبيب ندماني محدثي تارة وربحاني
أضحكني في الكتاب أوله ثم تهادى به فأبكاني
ثم تجنت عليه الذنوب ، وتغابرت على أهله ، ووصمته النظر الى صواحبها ،
وسقته انصاف أقداحها ، وجشته بعضوض تفاحها^(٢) ، ومنحته من ربحانها ،

(١) في الاصل « تغفل »

(٢) كذا الاصل

وزودته عند انصرافه خصلة شعرها ، وقطعة من مرطها ، وشظية من مضرايها .
وأهدت اليه في النيروز تسكة وسكرا ، وفي المهرجان خاتماً وتفاحاً ، ونقشت على
خاتمها اسمه ، وأبدت عند العنرة اسمه ^(١) ، وغنته اذا رأته :

نظر المحب الى الحبيب نعيم وصدوده خطر عليه عظيم
ثم أخبرته أنها لاتنام شوقا اليه ولا تنهأ بالطعام وجداً به ولا تمل - اذا غاب -
الدموع فيه ، ولا ذكرته الا تنغصت ، ولا هتفت باسمه الا ارتاعت ، وانها قد
جمعت قنينة من دموعها من البكاء عليه . وتنشد عند موافاة اسمه بيت المجنون :
وأهوى من الاسماء ما وافق اسمها وأشبهه أو كان منه مدانيا
وعند الدعاء به قوله :

وداع دعا اذ نحن بالخيف من منى فهبج أحزان الفؤاد وما يدري
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما أطار بليلى طائراً كان في صدري
وربما قادها هذا التوبة الى التصحيح ، وربما شاركت صاحبها في البلوى
حتى تأتي الى بيته فتمكنه من القبلة فما فوقها ، وتفرشه نفسها ان استحل
ذلك منها

وربما جمحت الصناعة لترخص عليه ، وأظهرت العلة والتألب على الموالي ،
واستباعت من السادة ، وادعت الحرية احتيالا لان يملكها ، واشفاقاً عليه أن
يجتاحه كثرة ثمنها . ولا سيما اذا صادفته حلو الشمائل ، رشيق الاشارة ، عذب
اللفظ ، دقيق الفهم ، لطيف الحس ، خفيف الروح . فان كان يقول الشعر
ويتمثل به أو يترنم كان أحظى له عندها

وأكثر أمرها قلة المناصحة ، واستعمال الغدر والحيلة في استنزاف ^(٢) ما يحويه
المربوط والانتقال عنه . وربما اجتمع عندها من مربوطيها ثلاثة أو أربعة على أنهم

(١) كذا الاصل

(٢) كذا الاصل ، ولعله « استنزاف »

يتحامون الاجتماع ، وينغايرون عند الالتقاء ، فتبكي لواحد بعين ، وتضحك للآخر بالآخرى ، وتغمز هذا بذلك ، وتعطي واحدا سرها والآخر علانيتهما ، وتوهم أنها له دون الآخر ، وإن الذي يظهر خلاف ضميرها ، وتكتب لهم عند الانصراف كتباً على نسخة واحدة ، تذكر لكل واحد منهم تبرمها بالباقيين ، وحرصها على الخلوة به دونهم ، فلو لم يكن لا إبليس شرك يقتل به ، ولا علم يدعو إليه ، ولا فتنة يستهوى بها إلا القيان لكفاه . وليس هذا بذم لمن ولا كنه من فرط المدح ، وقد^(١) جاء في الأثر « خير نساءكم السواحر الخلابات » ، وليس يحسن هاروت وماروت وعصا موسى وسحرة فرعون إلا دون ما تحسنه القيان ثم إذا منعن الزنا غلبه عليهن مخارج بيوت الكشاشنة ترميهن في حجور الزناة ، ثم هن أمهات أولاد من قد بلغ الحب لمن أن غفروا لمن كل ذنب ، وأغضوا ممن علي كل عيب . وإذا كن في منزل رجل من السوق عذرتهن ، فإذا انتقلن إلى منازل الملوك زال العذر ، والسبب فيه واحد ، والعلة سواء

وكيف تسلم القينة من الفتنة ، أو يمكنها أن تكون عفيفة ، وإنما تتكتسب الأهواء ، وتعلم الآسن والأخلاق بالمشأ ، وهي إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أو أن وفاتها بما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث ، وصنوف اللعب والأخانيث ، وبين الخلفاء والمجان ، ومن لا يسمع منه كلمة جد ، ولا يرجع منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة ، وتروي الحاذقة ممن أربعة آلاف صوت فصاعداً يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات عدد ما يدخل في ذلك من الشعر إذا ضرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة ، ولا ترهيب [عن] عقاب ، ولا ترغيب في ثواب ، وإنما بنيت كلها على ذكر الزنا والقيادة والعشق والصبوة والشوق والغفلة . ثم لا تنفك من الدراسة لصناعتها

(١) في الأصل « وإن »

منكبة عليها تأخذ من المطارحين الذين طرّحهم كله تجميش ، وانشادهم مرادة ، وهي مضطرة الى ذلك في صناعتها لانها ان جفتها تفلتت وان أهملتها نقصت وان لم تستفد منها وقفت ، وكل واقف فالى نقصان أقرب ، وانما فرق ما بين أصحاب الصناعات وبين من لا يحسنها التزيد فيها والمواظبة عليها ، فهي لو أرادت الهدى لم تعرفه ، ولو بفت الغفلة لم تقدر عليها ، وان ثبتت حجة أبي الهذيل فيما يجب على المتفكر زال عنها خاصة ، لان فكرها وقلبها ولسانها وبدنها مشاغل بما هي فيه وعلى حسب ما اجتمع عليها من ذلك في نفسها لمن بلي بمجالستها عليه وعليها ومن فضائل الرجل منا أن الناس يقصدونه في رحلة بالرغبة كما يقصد بها للخلفاء والعطاء ، فيزار ولا يكلف الزيارة ، ويوصل ولا يحمل على الصلة ، ويهدى له ولا تقتضى منه الهدية ، وتبيت العيون ساهرة ، والدموع^(١) ساجمة ، والقلوب واجفة ، والا كباد منصدة ، والاماني واقفة على ما يحويه ملكه وتضمه يده ، مما ليس في جميع ما يباع ويشترى ويستفاد ويقتنى ، بعد العقد النفيسة^(٢) . فن يبلغ شيئاً من الثمن ما بلغت حبشية جارية عون مائة الف دينار وعشرين الف دينار ، ويرسلون الى بيت مالها بصنوف الهدايا من الاطعمة والأشربة ، فاذا جاءوا حصلوا على النظر ، وانصرفوا بالحسرة ، ويجتنى مولاها ثمرة ما غرسوا ، ويتملي به دونهم ، ويكنى مؤنة جواريه

فالذي يقاسيه الناس من عيلة العيال ، ويفكرون فيه من كثرة عددهم ، وعظيم مؤثمتهم وصعوبة خدمتهم ، [هو] عنه بمعزل ، لا يهتم بغلاء الدقيق ولا عوز المويق ، ولا عزة الزيت ، ولا فساد التبيد . قد كفى حسرته اذا نزر ، والمصيبة فيه اذا حمض ، والفجعة به اذا انكسر ، ثم يستقرض اذا اعسر ولا يرد ، ويسأل الخواج فلا يجمع ، ويلقى ابداً بالاعظام . يكنى اذا نودى ، ويفندى

(١) في الاصل : والعيون (٢) كذا في الاصل

إذا دعي ، ويحجب بطريف الاخبار ، وبطلع على مكنون الاسرار ، ويتغابر الرباط .
 عليه ، ويتبارون في بره ، ويتناجون في وده ، ويتفاخرون بايثاره
 ولا نعلم هذه الصفة الا للخلفاء ، [وهم مع ذلك] يعطون فوق ما يأخذون ،
 وتحصل بهم الرغائب ، ويدرك منهم الغنى . والمقين يأخذ الجواهر ويعطي
 العرض ، ويفوز بالعين ويعطي الاثر ، ويبيع الريح الهابة بالذهب الجامد وفلذ
 اللجين والمسجد . وبين المرابطين وبين ما يريدون منه خرط القتاد ، لان صاحب
 القيان لو لم يترك اعطاء المربوط سؤله عفة ونزاهة لتركه حذقا واختيارا ، وشحا
 على صناعته ، ودفعاً عن حريم ضيعته . لان العاشق متى ظفر بالمعشوق مرة
 واحدة نقص تسعة أعشار عشقه ، ونقص من بره ورفده بقدر ما نقص من عشقه
 فما الذي يحمل المقين على أن يهبك جاريته ، ويكسر وجهه ، ويصرف
 الرغبة عنه . ولولا أنه مثل في هذه الصناعة الكريمة الشريفة لم يسقط الغيرة عن
 جواريه ، ويعنى بأخبار الرقباء ، ويأخذ اجرة المبيت ، ويتناوم قبل العشاء ، ويعرض
 عن الغمزة ، ويغفر القبلة ، ويتغافل عن الاشارة ، ويتعامى عن المكاتبة ،
 ويتناسى الجارية يوم الزيارة ، ولا يعاتبها على المبيت ، ولا يفض ختام سرها ،
 ولا يسألها عن خبرها في ليلها ، ولا يعبا بأن تقفل الأبواب وتسدد الحجاب ،
 ويعد لكل مربوط عدة على حدة ، ويعرف ما يصلح كل واحد منهم كما يميز التاجر
 أصناف تجارته ، فيسعرها على مقاديرها ، ويعرف صاحب الضياع أراضيها بمزارع
 الخضرة والحنطة والشعير . فمن كان ذا جاه من الرباط اعتمد على جاهه ، وسأله
 الحوائج ، ومن كان ذا مال ولا جاه له استقرض منه بلا عينة ، ومن كان من
 السلطان بسبب كفيت به عادية الشرط والاعوان ، وأعلنت في زيارته الطبول
 والسراني^(١) مثل سلمة الفقاعي ، وحمدون الصحنائي ، وعلى الغامي ، وحجر النور ،

موقعه، وابن دجاجة، وحفصويه، وأحمد شعرة، وابن المجوسي، وإبراهيم العلام
 فأي صناعة على وجه الأرض أشرف منها، ولو يعلم هؤلاء المسمون فرق
 ما بين الحلال والحرام لم ينسبوا إلى الكشح أهلها لانه قد يجوز أن تباع الجارية
 من المملوء فيصيب منها وهو في ذلك ثقة، ثم يجمعها صاحبها بأقل مما باعها به
 فيحصل له الربح، أو يزوج ممن يثق به، ويكون قصده للمتعة، فهل على مزوجه
 من حرج، وهل يفر أحد من سعة الحلال إلا الخائن الجاهل، وهل قامت الشهادة
 بزنا قط في الإسلام على هذه الجهة

هذه الرسالة التي كتبناها من الرواة منسوبة إلى من سمينا في صدرها، فإن
 كانت صحيحة فقد أدينا منها الرواية، والذين كتبوها أولى بما تقلدوا من الحجة
 فيها، وإن كانت منحولة فمن قبل الطفيليين إذ كانوا قد أقاموا الحجة في أطراح
 الحشمة والمرتكبين، ليسهلوا على المقينين ما صنعه المقرفون. فإن قال قائل
 إن لها في كل صنف من هذه الثلاثة الاصناف حظاً وسبباً فقد صدق
 وبالله سبحانه التوفيق، ومنه الهداية إلى سواء الطريق * والحمد لله
 بوحده وكفى.



تمت الرسالة في القيان من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ بعون الله
 تعالى ومنه وتوفيقه وتأيدته ومشيتته. والله سبحانه المستول في التجاوز عن
 الخطأ واللغو في نقل ذلك

تصحیح

ص	سطر	
١٤	٢١	هذا السطر يجب أن يكون متصلا بالسطر الذي في أول الصفحة التالية
٢٨	١٧	أحمد الله حمدا جديدا أحمد * وفي التوراة « احمدا الله حمدا جديدا »
		حمد * «
٢٩	٣ - ٢	أحرث الجبال والشعب وأخذ بالعرب * صوابه « أخرج الجبال والشعب وأخذ بالموءر »
٣٠	١٠	استناره * صوابه استناره
٣١	١٣ - ١٤	من الخلة (بالضم) والاختلال لامن الخلة * والصواب من الخلة (بالفتح) والاختلال لامن الخلة (بالضم)
٣٣	١١	بشرط التأديب * لعله بشرف التأديب
٣٥	٤	محبوسة بحسبه * صوابه محبوسة بحسبه
٣٦	١٣	فكنا * لعله « اكنا »
٤٢	١٢	ونحذف الشاورتين * لعله « ونحذف الشارين »
٤٥	١٨ و ٢٠	(١) * صوابه (٢)
٤٧	١٣	ضممة * صوابه « ضمة »
٥٤	١٤	موجبة * صوابه « موجبة »
٦٥	١٤	ما أقرب احل * صوابه « ما أقرب ما أحل »
٦٦	٦	لهوام * صوابه « الهوى » وفي سطر ٩ اشفاء صوابه « شفاء »
٦٦	١٤	الفرح صوابه « الفرج »
٦٨	٢٠	ولذلك ما ترى * صوابه « ولذلك ترى »
٧٠	٨	بقطعه * صوابه « بقطعة »



TO
MR. JULIUS ROSENWALD
IN ADMIRATION AND GRATITUDE.





1871
1872
1873
1874
1875
1876
1877
1878
1879
1880
1881
1882
1883
1884
1885
1886
1887
1888
1889
1890
1891
1892
1893
1894
1895
1896
1897
1898
1899
1900

AUC - LIBRARY



DATE DUE



A.U.C

18 DEC 1993



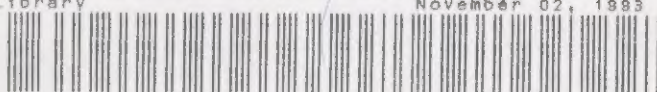
A.U.C

28 DEC 1996

PJ
7745
J3
T5
1925
C 3

The American University in Cairo
Library

November 02, 1983



0 0 0 0 0 2 9 1 7 0 3

15 JUN 1987

PJ
7745
J3
T5
1925
C.3